

نحو مجتمع بلا مشكلات

شخصية المسلم

الحل الإسلامى

عناصر القوة فى بناء المجتمع

الكذب وهلاك الأمم

الصدق .. ونهضة الأمم

العفو سيد الأخلاق

مجالسنا والوقت الضائع

منهج الإسلام فى الإصلاح

سلطان

دكتور محمود محمد عماره



نحو مجتمع بلا مشكلات

تأليف

دكتور / محمود محمد عمارة
أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

مكتبة الإيمان

مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

كمبيوتر «٠٣٠٥[illegible]٠»

الفهرست

تمهيد

لما سئل حكيم عن أهم مكونات الأمة أجاب : القِيَم . والقوت . والجيش

فلما سئل: وإذا فرض على الأمة أن تتخلى عن واحد من هذه الثلاثة . . فعن أيها تستغني قال: عن الجيش! . .

فلما قيل له: وإذا فرض عليها الاستغناء عن واحد من الاثنين قال: عن القوت!

فلما أبدى السائل دهشته قائلا :

كيف تبقى أمة بلا جيش . . وبلا قوت؟! قال: إذا بقيت القيم راسخة . . فعن طريقها سوف تحصل الأمة أقواتها . . وتجيش جيوشها . .

أما إذا راحت القيم . . فقد ذهبت الأمة معها!

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهذه الصفحات التي بين يديك . . هي محاولة لتأصيل هذه القيم . . والتنويه بها . . وصولاً بالأمة إلى مكانها العليّ . .

كيف؟ بإظهار قبح القبيح . . في مواجهة أجمل ما يكون الجمال!

بالكشف عن بعض القيم العفنة . . إزاء قيم الحق والخير والجمال . . والضد يُظهر حسنه الضد . .

وإذن .. فقد يجد المسلم طريقه إلى السعادة .. بعد أن ضاع من قدمه الطريق .. سيجد الغيبة وسيجد النميمة .. والكذب .. بوجوهها الكالحة .. وسيجد العفة .. والصدق .. والتواضع .. والأمانة .. تطل عليها من علياثها مشرقة .. تدعوه أن يمضي في ضيائها .. على خط مستقيم هو أقرب المسافات بين نقطتين .. ليوفر بالاستقامة فائض جهده ووقته .. لإسعاد أمته ..

وسوف لا يكون الحديث عن القيم الفاسدة .. والقيم الطيبة .. سوف لا يكون «أكاديميا» يخطه الكاتب من وراء مكتبه الأنيق .. وإنما هو الاسترسال .. المنبعث من الواقع المعاش .. هذا الواقع الذي يعيشه الكاتب .. ميدانيا .. وعلى الطبيعة .. ولا ينقله نقلا من بطون الكتب .

وعلى الله قصد السبيل

د / محمود محمد محمد عمارة



من آثار العزة الفردية والاجتماعية

أفاض علماؤنا في بيان آثار العزة على الفرد، وعلى الجماعة:

أما عن فائدتها للفرد نفسه:

١ ـ ففي العزة راحة الضمير، وسلامته مما يحس به الأذلاء من ألم الهوان.

٢ ـ ثم هي تُلقي على الآخذ بها مهابة ووقارًا ينشئ له في قلوب الآخرين مكانة خاصة.

٣ ـ وهذه المكانة الخاصة لا تحمل العزيز على أن يجعلها غاية له.. كما لا تحمله على اتخاذ العزة وسيلة للحصول على مآرب شخصية.

ومن هذا الإنسان العزيز تتكون الأمة.. التي تصير به وبأمثاله مرهوبة الجانب:

لا يطمع فيها طامع لما تملكه من إباء يرفض الضيم كما يرفض المساومة على الكرامة.

وقد أشار المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين إلى طبيعة الإسلام الآخذة كل مسلم ليكون بإيمانه قويًا أبيًا:

١ ـ فقد بنى الإسلام شرائعه وأحكامه على رعايتها:

فمنع الاستجداء.. مقررا شرف العمل في مثل قوله (ﷺ): «**لأن يحمل أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو**

منعوه». مع ملاحظة أنه يقول: «حبله..».

أي حبله هو.. شخصيًا..لا يستعيره من أحد..ليبدأ رحلة الرزق من موطن العزة. والاستقلال.

٢ ـ شرع الهجرة من بلد لا يُرفع فيه لواء الإسلام .

٣ ـ رفع من قيمة حب الوطن.. فكان من علامات الإيمان.

٤ـ ولأن قبول التبرع موقفٌ ضعيف..بما قد يحدثه من حرج وإحساس بالهوان.. فإن الإسلام يقرر أن التبرعات لا تتم إلا بقبول المتبرع.. حفاظا على كرامته التي يملك حق صيانتها والدفاع عنها:

فلو وهب شخص لآخر لا تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له. إذ قد يرى في قبولها منَّةً ـ والمنة تجرح العزة ـ وبخاصة إذا كانت من لئيم.

وقد رفضها العلماء من الولاة تحريرًا للموعظة من التبعية وقد أسقط الغزالى وجوب الأمر والنهي إذا أحس الداعي أن موعظته لن تجدي ثم يضاف إليها الإهانة.. أما عند عدم الإهانة فاحتمال الأذى: عزة .

٥ ـ ثم إن الكفاءة في النكاح متفق عليها، لكن الاختلاف في تحديدها...

٦ـ وقد نلمح حرص الإسلام على عزة المؤمن من مثل قوله (تعالى): ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ [الملك: ١٥] فالرزق مكفول من قِبَل الحق (تعالى)..وحده..

وواجب عليك أيها الإنسان أن تمشي في مناكب الأرض بحثا عن هذا الرزق المكفول.. وهذا دورك.

ولا طرف ثالث هناك.. تُذل نفسك له.. وتمد رقبتك إليه ليتحكم فيك.. فقد أعزك الله أن جعل رزقك من رحمته.. وأنت الطرف الثاني

تحصله بسعـيك. . فاحرص على ما منحك من عـزة. . هيأك لتكون لها أهلا.

وإذا كـان ولا بد من تذلل فلـلرازق وحـده، وإذا تذللت الرقـاب تواضعا منّا إليك فعزها في ذلها .



تطبيقات عملية

ليس كالإسلام مذهب يكرم الإنسان.. فيما شرعه من آداب تحفظ عليه إنسانيته.. ثم في تحويله تلك الآداب إلى أخلاق عملية.. فيما يشبه أن يكون معجزة بعدما هانت نفس الإنسان في ظل المذاهب الأرضية. من أجل ذلك كانت العزة من خصائص المؤمنين.. وكانت الذلة من سمات الكافرين:

يقول (سبحانه وتعالى): ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨].

ويقول (عز شأنه): ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ**﴾ [المجادلة: ٢٠].

جاء أبو بكر في شهادة أمام القضاء... فقام له رجل من مجلسه، فأبى أن يجلس فيه وقال: نهانا النبي (ﷺ) عن ذا وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه.

ولقد بلغت الحساسية حدًا كان أحدهم ينزل عن ناقته ليلتقط سوطه. ويرفض أن يكلف أحدًا مُنَاولته إياه.

والأصل في ذلك كله قوله (ﷺ): «**من أعطى الذلة من نفسه. طائعًا غير مكره فليس منا**».

من أجل ذلك اعتبرها الصحابة طاعة واجبة الاتباع.. فأحبوا العزة لأنفسهم.. كما أحبوها لغيرهم...

ولم تكن قصارىٰ أحدهم أن يكون عزيزًا في مجتمع من الأذلاء.. بل حَرَص أشد الحرص علىٰ تنامى عـزته.. وذلك لا يتم إلا في مجتمع عزيز...

إن زعماء الدنيا قد يقتلون في قلوب الأمة فضيلة الطموح والأنفة حين يَفْرضون عليها أن تبالغ في احترامهم.. وبذلك تتضخم عزة الحكام علىٰ حساب كرامة الأفراد... وهو الأمر الذي رفضه الإسلام رفضًا باتًا.

ولا بد من كلمة هنا نلقي بها مزيدًا من الضوء علىٰ تقليد القيام للكبراء والعلماء.. تحديدا للمعالم:

وقد تلخص لي من مجموع النصوص أنه: لا بأس من القيام تقديراً لمن لهم قدمُ صدق في خدمة الدين وخدمة الوطن.. شرط البراءة من التشبه بالأعاجم فيما اصطلحوا عليه من مظاهر كاذبة.. وبشرط ألا يكون في القيام تغذية لمشاعر التكبر والسيطرة.. فإذا صادف القيام أهله.. بريئًا من هذه النزعة.. فلا جناح عليك..

ونقرأ في ذلك ما رواه جابر(رضي الله عنه) قال: اشتكىٰ رسول الله (ﷺ) ـ أي مرض ـ فصلينا وراءه وهو قاعد. وأبو بكر يُسمع الناس تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قيامًا فأشار إلينا فقعدنا، فصلينا بصلاته قعودًا... فلما سلم قال: «إن كِدْتم آنفا لتفعلون فعل فارسَ والروم، يقومون علىٰ ملوكهم. وهم قعود فلا تفعلوا»[1].

وهكذا يحذرهم رسول الله (ﷺ) من قيام يشبه قيام فارس والروم والذي كان يتعمد به الحكام هناك إذلال الرعية.. وجرح إنسانيتها.

(١) رواه مسلم .

وقد فهم الصحابة وجهة نظره (ﷺ) ثم طبقوها عمليًا وروي: أن معاوية خرج على الزبير وابن عامر. فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»[1].

ونتأمل قوله (ﷺ): «من أحب» لندرك ذلك الصنف الذي ينْصَبُّ عليه الإنذار.. وهو الذي صار قيام الناس له في حياته مسألة جوهرية.. يُدَبِّر لها.. ويحرص عليها.. ويخاصم ويصالح من أجلها.. وإذن.. «فليتبوأ مقعده من النار». جزاء حرصه على خضوع الناس له.. ومحاولة امتصاص ما يملكون من ثروة العزة.. ليضيفها إلى نفسه زوراً وبهتانًا.

أما الرجل العالم.. أو المجاهد.. أو الاجتماعي المخلص.. فلا بأس من القيام له.. ما دام ذلك عفواً وبلا تدبير منه.. ولا من القائمين.. وإنما هو الحب والاحترام يفيض بلا معاناة من قلوب أَسَرَهَا بعلمه.. وجهاده.. وسعيه الدءوب في مصالحهم.

ومن هذا اللون ما جاء في الصحيحين: أن النبي (ﷺ) لما حكَّمَ سعد بن معاذ في بنى قريظة أرسل إليه فجاء راكبًا على حمار، وكان مجروحًا، فقال (ﷺ) للأوس: «قوموا إلى سيدكم».

فسعد بن معاذ.. سيد بشهادة الرسول (ﷺ) سيادة دفع ثمنها من دمه وعرقه ولم يرثها عن آبائه الأولين.

وقد جاء.. مريضًا.. مرهقًا.. راكبًا حمارًا.. ولا يمتطي صهوة جواد فَارِهٍ.. فالجو كله مشحون بمعاني الإشفاق.. والتقدير والاعتراف

---

(١) رواه الترمذي وحسنه.

بالفضل لأهله.. ولا ظل هناك لزعامة تفرض نفسها فرضًا بالقوة أو بالحيلة..

وفي إطار من هذه المعاني السمحة الكريمة جاء أمر الرسول بالقيام.. لمن هو جدير بهذا القيام..

والرسول الكريم على عظم قدره.. كان يقوم.. لبعض أصحابه تكريمًا لهم.. وفي جو لا ظل فيه لتجبر منه.. ولا لتملق منهم. وإنما هي الرأفة والرحمة بالمؤمنين تتجلى في شخصه (ﷺ):

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: دخل زيد بن حارثة المدينة ورسول الله (ﷺ) في بيتي فأتاه فقرع الباب، فقام إليه رسول الله (ﷺ) عريانًا ـ الجزء الأعلى من جسمه الشريف عريان مما ليس بعورة ـ يجر ثوبه ـ تقول عائشة والله ما رأيته عريانًا قبله ولا بعده ـ فاعتنقه وقبّله [1].

ورُوي أنه (ﷺ) لما جاءه عكرمة بن أبي جهل مسلمًا بعد فتح مكة، وثب إليه سرورًا ولم يكن عليه رداء ولقد قام لجعفر بن أبي طالب لما قدم من الحبشة قائلا: «**ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ: بقدوم جعفر أم بفتح خيبر**».

وهكذا يضرب الرسول الكريم عصفورين بحجر واحد:

يُعلّم الأمة أن تظل عزيزة.. بدينها.. ويتيح للقلب المؤمن الحساس.. أن يعبر عن أشواقه.. وبهجته بكلمته.. أو بحركته.. قائمًا.. أو ساعيًا.. حين لا تستطيع الكلمات أن تحمل أمواج الأشواق.. فيتكفل الكيان كله.. بالتعبير.. وفاء.. وولاء.

(١) رواه الترمذي وحسنه.

ولقد ظهرت آثار هذه العزة على ألسنة المؤمنين الأعزاء بإيمانهم.. وبما أخذهم به نبيهم الكريم.. حتى ذلك الفلاح.. الذي قد تَلْفِت نظره إلى التنازل عن بعض حقوقه المدنية.. إبقاء على راحته.. فيفاجئك بمنطقه الحاسم: جنة بمذلة.. لا أرضى بها.

وقد صاغ الشافعي (رضي الله عنه) ذلك المعنى شعرًا حين قال:

عليّ ثياب لو يباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يقاس بمثلها ... نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

وصدق الله العظيم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]

إنها العزة المحكومة بالإيمان والتي تنأى بصاحبها عن الكبر.. بل يظل دائمًا: كضوء الشمس، عاليًا بعزته. وفي نفس الوقت يعايش الناس من حوله في تودد.. وتواضع..



من تواضع عمر

لقد كان التواضع أصيلا في نسيج شخصيته (رضي الله عنه).. إلى حد كبير مما حمل أكابر الصحابة على نقده فيما يفعل بنفسه..

عن طارق قال: خرج عمر إلى الشام. ومعنا أبو عبيدة، فأتوا على مخاضة - مستنقع ماء - وعمر على ناقة له... فنزل، وخلع خُفَّيه، فوضعهما على عاتقه - ما بين المَنْكِب والعنق - وأخذ بزمام ناقته فخاض، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين: أنت تفعل هذا؟ ما يسرنى أن أهل البلد استشرفوك - رأوك -

فقال متأففًا: إن يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد: إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله[1].

إن عمرًا أولا - وكعادته مما عَلِمْناه من سيرته - يلقن الحياة درسًا في هضم النفس يفر به من أبَّهة السلطان.. لتبقى هذه النفس على طبيعتها.. بلا رتوش موصولة بآلام الناس ... وهمومهم.

وماذا لو خلع عمر نعْلية.. وخاض الماء بقدميه.. ساحبًا بعيره بيده؟!

ماذا أضاع المشهد من هيبته؟

لقد بقي عمر كما هو. لم يتغير. ولكن الذي تغير هم الذين شاهدوه على هذه الحال.. فطالعوا في شخصيته كيف يعتز المؤمن بقيمته الذاتية

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

المشتقة من الإيمان.. والتى كانت وسيلته في سياسة رعيته.. ولم يكن بالدِّرة وحدها يسوق الناس..

وكان غريبًا أن يجيء النقد من رجل كأبي عبيدة.. والمفروض أنه خبير بدلالة الموقف.. على أي حالٍ لقد أخذ حظَّه من العتاب.. وفهم ـ والمؤمنون معه ـ أن الْتماس العزة من الرياش ورفاهية المعاش.. ليس من الإسلام.. الإسلام: الذي جعل العزة في طاعة الله (تعالى).. والسير مع الناس العاديين.. نمارس الحياة من مواقعهم.. منضوين جميعا تحت لواء الإسلام الذي أعزنا الله بما فيه من قيم غاليةً.. غالبة.

ولهذا الرد العمري أصله القرآنى في قوله (تعالى): ﴿**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ [النساء: ١٣٩].

ولم يكن التواضع حالات فردية.. بل كان ظاهرة عامة:

أخرج ابن سعد عن ثابت قال: «كان سلمان الفارسي أميرًا على المدائن، فجاءه رجل من أهل الشام معه حمل ثقيل، فقال لسلمان الأمير وهو لا يعرفه: تعَال احمل يظنه حمَّالا ـ فحمل سلمان. فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير!

فقال الرجل: لم أعرفك فقال سلمان: لا حتى أبلغ منزلك قَدْ نَوَيْتُ فيه نية فلا أضعه حتى أبلغ بيتك!!».

فانظروا كيف فعل الإسلام بأهله: لقد كان سلمان بالأمس القريب.. واحدًا من دولة فارس. يشاركهم حياتهم الضالة العابثة.. على ما يقول الشاعر العربي:

وهل أنا إلا من غزية: إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد؟!!

فلما دخل الإسلام.. وجد مذاقًا آخر نضجت فيه شخصيته نضجًا صار به خلقًا آخر. لقد كان الرجل الضعيف من قبل يدوس خطأ ثوب واحد من علية القوم فيهشم أنفه إذِ استباح حرمته.. واليوم: يُصِرُّ سلمان الأمير أن يحمل لرجل لا يعرفه.. وهو أمير المدائن.. ويراه الناس.. ومع ذلك لا يَضيره.. ولا يتحرج.. بل يُصِرُّ على أن يفي بوعده الذي أخذه على نفسه.. فوصل بالمتاع إلى البيت بينما صاحب الحمل يحترق خجلاً..

لقد بقي الرجل بفضائله الأصيلة.. فعاش في حراستها.. ولم يضره أن يمضي في الطريق بملابس عادية رخيصة تغري رجلاً من عامة الناس فيحسبه حمالا فيطلب منه حمل متاعه.. إذ لا دليل من ظاهره يشهد بإمارته.. لقد قامت معركة ساخنة يومًا في القطار.. لأن راكبًا حسب رجلاً مسئول التذاكر فطلب منه تذكرة.. ولم تضع الحرب أوزارها.. تلك الحرب التي شنها صاحب منصب لمجرد ظنٍّ واحد أنه المحصل دون أن يقصد الإساءة إليه.. وهكذا الشخصيات الهشة.. تكسرها هبة النسيم..

ولكن سلمان يحمل المتاع.. ولعله كان مستمتعًا بما ساق إليه القدر من فرصة تُمكِّن لخلق التواضع في نفسه.. فما كان مثله يبحث عن الأبهة المشتقة من ضخامة المنصب.. ولكن مكانه هناك في حنايا الصدور بما قدم من عظائم الأمور.



من عمر إلى عمرو

ركب عمرو بن العاص بغلة مسنة.. واجتاز بها منازل كبار الصحابة.. والقواد في الفسطاط.

فقال له أحدهم: أتركب هذه البغلة أيها الأمير.. وأنت من أقدر الناس على امتطاء أكرم ناقة في مصر؟!

فقال: لا ملل عندي لدابتي.. ما حمَلت رجلي.. ولا لامرأتي.. ما أحسنت عشرتي.. ولا لصديق.. ما حفظ سري... فإن الملل من كواذب الأخلاق.

فهذا أمير الجماعة لا يركب بعيرًا فارهًا.. وإنما يركب بغلة.. .وبغلة مسنة ضعيفة!

إنه لا يستمد شخصيته من خارج ذاته.. وإنما من ثقته بربه... ثم بنفسه..

والفارغون هم الذين يحرصون على بريق المناصب.. وصخب المواكب..

ومادامت نفسه ممتلئة بالإحساس بأداء الواجب.. حيث مكّن لدين الله في الأرض..

ثم الإحساس بالرضا بالدابة تحمله.. والزوجة تحبه.. والصديق يستره..

إنه من هذه النعم في ظل سابغ.. وقلب مطمئن إلى نفاسة ما يملك من فضائل.. فَلِمَ إذن يتسول مظاهر التعاظم الكاذب من خارج نفسه.. بينما النفس من هذه الفضائل بالموقع الأسمى؟!

أبو بكر خادم الأمة

أخرج ابن سعد عن أبي بكر (ﷺ) أنه كان قبل الخلافة تاجراً. . . وكان يحلُب للحي أغنامهم. . . فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا.

فسمعها أبو بكر. فقال: بلى لعمري. . لأحُلبنها لكم.

وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه.

فكان يحلب لهم .

وتذكرني هذه الصورة الفريدة بمدير شركة. . طَبَعته الوظيفة بطابعها:

إذا غضب. . غضب معه ألف موظف!

حري إذا أَمر أن يطاع. . وإذا شفع أن يشفع. . وإذا خطب أن ينكح!

لقد صبته الوظيفة العالية في قالب جامد. . فلم يتعود أن يرجو غيره. . فهو المرجو دائما. . ولا أن يأمره غيره. . فهو الآمر دائمًا. .

فلما زايلته الوظيفة كان أمره عجبًا:

لقد حاول الخروج من إسارها. . بيد أنها كانت قد استعبدته. .

وفشل في أن يعود كما كان قبل المنصب العالي. . بسيطً متواضعًا. . اجتماعيًا يخف لنجدة الناس. .

ولكن أبا بكر (ﷺ) يمارس الخلافة بقلب ودود. . وإرادة حرة. .

وها هو ذا يقعُد القرفصاء.. يحلب الشاة لجيرانه.. وهم ينظرون.. ويتعلمون فن التواضع.. وفنّ خدمة الناس.. يتعلمون أعلى صور العبادة على يدى خليفة رسول الله (ﷺ) وإنهم لسعداء.. بما يشاهدون..

وهم أشد سعادة حين أقسم أبو بكر أن الوظيفة لن تغيره.. معترفًا بأن للوظيفة آصارها التى يرجو الله (تعالى) أن يخلصه منها..

وقد خلّصه (سبحانه) من سطوتها عندما استمر لأهل حيه.. أو قريته: الخادم الأمين..

هل اهتزت شخصية الخليفة عندما نزل عن كرسي الخلافة.. إلى حيث الأغنام هناك في المراعي..

أبدًا..لقد ذهب وهو أبو بكر.. ثم عاد وهو أبو بكر.. بل زاد بالتواضع تقديرًا في أعين الناس.. فأحبوه.. وأطاعوه.. حين عاد إليهم بيد عامله مخشوشنة يحبها الله ورسوله.

ويبقى الموقف درسًا في التربية العملية:

فخلق التواضع.. ليس فقط فكرة في الذهن.. ولكنه يطبق على الطبيعة.. ويطبق على أرفع مستوى..

وكأنما يقول للشباب تقدموا.. واعملوا.. منطلقين بقيم المسجد إلى الآفاق الفساح.. عابدين.. عاملين.. آملين..

لقد جد آباؤنا في إرساء دعائم الفضيلة حجرًا فوق حجر: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]

وإذا استهانت الأجيال الجديدة ببناء لم يعانوا في إقامته.. ووجدوه بين أيديهم جاهزًا..

فإن الإسلام يهيب بهم على لسان الشاعر أن يتحملوا مسئوليتهم ليظل شامخًا

لسنا وإن أحسابنا كرمت يومًا على الآباء نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا



شخصية المسلم

والمفروض أن شخصية المسلم قـوية.. وقوتها نابعة من إيمانها بربها الذي لا حـول إلا به.. ولا توكل إلا عليه. ولا تفـويض إلا له.. ولا التجاء إلا إليه..

ومعنى ذلك أن نفس المسلم عزيزة بهـذا الإيمان وثمراته.. فليست كلأ مباحًا.. ليستغلها كل ناعق.. ويستعبدها كل مخادع.

وإنما هي: لا تقبل الفكرة.. إلا بالدليل. ولا تُذعن للمحسوس.. إلا بالتجربة.. ولا تعمل بالنص إلا إذا صح النقل واتصل السند..

وإذن.. فليس لأحد مهما كان أن يفرض عليها سياسة الأمر الواقع لحـاجة في نفـسه.. لأن عـزة المؤمن تأبى أن يكون ذيلاً لأحد.. وقـد جعله الله رأسا..

مثال: عن عليّ كرم الله وجهه قال:

بعث رسـول الله (ﷺ) سـرية واسـتـعـمل عليـهـم رجـلاً من الأنصار... فلما خرجوا وَجِد - أي غضب - عليهم في شيء قال:

فقال لهم: أليـس قد أمركم رسول الله أن تطيعـوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا حطبًا ... ثم دعا بنار.. فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخُلنها!!

قال: فـقال لهم شاب منهم: إنما فـررتم إلى رسول الله (ﷺ) من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله (ﷺ).

فـإن أمـركم أن تدخلوها فـادخلوها. قـال: فـرجعـوا إلى رسـول الله(ﷺ) فأخـبروه. فـقال لهم: «لو دخلتـموها،ما خـرجتم منهـا أبدًا إنما الطاعة في المعروف»[1].

ومعنى هذا أن قائد السرية العسـكرية أراد أن يستغل منصبة لفرْض إرادته. . .

ولكن الرسول (ﷺ) بمنطقه الحكيم يجعل من عزة المؤمن أمرًا واقعًا حين قرر أن:

١ ـ الطاعة العمياء مرفوضة باسم الإسلام.

٢ـ ولكن الطاعة في المعروف واجبة. .

وبناء على ذلك. . فعلى المسلم أن يتأمل مـا يرى وما يسمع. . فلا يهمـه أن يكون إنسان ما، هو الذي يقـول. . ولكن المهم أن تنظر إلى ما يقوله. . فـالحق هو السبـيل لمعرفة قـيمـة القائل، أما القـائل نفسـه فلا يكفي. . فربما كانت نيته منحرفة عن سواء الصراط.

ولنا في موقف يزيد بن صهيب عبـرة: لقد أغلق حسه وعقله على رأي واحد. . وليـته وقف عند هذا الحـد. . ولكنه راح يستشـهد بآيات القرآن الكريم تدعيما لرأيه. .

فماذا حـدث؟ كانت نظرته جزئية ضـيقة. . وكان استـشهاده على صحـة رأيه خاطئًا. . فكانت النتيـجة أن فسـد حكمه على الناس وعلى الأحداث. . فلما فتح منافذ عقـله وحسه على الرأي الآخر. . غمره نور هذه الصحوة المباركة فعاد إلى الحق لمـا تبين. . عاد بشخصية عزيزة قوية رفضت أن تباع في المزاد!

(١) أخرجاه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد.

ونجح الفلاح في الامتحان!

بعد أن دمرت القنبلة الذرية «هيروشيما» «وناجازاكى» قال الناس للعالِم «أوتوهان»:

إن تلاميذك قد استغلوا معرفتهم بالفيزياء والطاقة في صنع القنبلة التي خربت العامر.. فقال:

هٰذه غلطتى...لقد علمتهم العلم. ولم أعلمهم الأخلاق!

وهكذا تبدو الأعمال الكبيرة هباء في غيبة العنصر الأخلاقى.

وما تغنى البُطولة ولا العبقرية عن الإخلاص الذي لا بد منه.. ليكون للعمل قيمة.. وطالما أسقط الإسلام من حسابه كل حركة لا يراد بها وجه الله (تعالىٰ).. وما أكثر الأضواء التي سلطت علىٰ صور من النشاط بدت في هالة إعلامية أعشت الأبصار..

لكنها في ميزان الحق.. لا شيء.. إنها تبدو كزهور الزينة: لها شكل الزهور.. وألوانها.. ولكنها بلا روح.. وبلا رائحة:

عن أبى هريرة: (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:

«إِنَّ أولَ الناسِ يُقْضَىٰ يَوم القيامة عَلَيْه رجلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَه نعَمَه.. فَعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كذبتَ ولكنك قاتلتَ لأن يُقَال: جَرِيء.. فقد قِيل. ثم أُمرَ به فَسُحِبَ علَى وَجْهه حتَّى أُلْقيَ في النار.

ورجلٌ تَعَلَّم الْعِلْمَ وَعلَّمه، وقرأ الْقُرآنَ فَأُتِيَ بِه، فَعَرَّفَه نعَمَه، فَعَرَفَها.

وقال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمتُ العلمَ، وعلَّمتُه وقرأتُ فيكَ القرآن.

قال: كذبت. ولكنك تعلمتَ العلمَ ليُقال عَالم وقرأتَ ليقال هو قَارئ فقد قيل: ثم أُمِرَ به فَسُحب على وَجْهه حتى أُلقْي في النَّار.

ورجُلٌ وسَّعَ الله عليه وأَعْطَاهُ منْ أصْنَاف المال، فَأُتي به، فَعَرَّفَه نعَمَه عليه، فَعَرَفَها، قال: فما علمتَ فيها؟ قال: ما تركتُ منْ سَبيل تُحبُّ أن يُنْفقَ فيها إلا أنْفَقْتُ فيها.

قال: كذبتَ ولَكنْ فعلتَ ليقَالَ هُوَ جَواد، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحبُ على وَجْهِه ثُمْ أُلقيَ في النَّار»[١].

وإذا سقط ذلك العالم.. والشهيد... والغني.. في الامتحان.. فقد نجح الفلاح البسيط الغائب بين أشجار الوادى لا يعرفه أحد.. لأن عمله انبثق عن الإخلاص.. وإرادة وصول الخير إلى الأمة..

لقد كان يعمل في السر.. ولكن عالم السر والنجوى (سبحانه) كان معه..

روى مسلم عن النبي (ﷺ): «بَيْنَما رجلٌ يَمْشي بفَلاَة منَ الأَرْض فَسَمعَ صَوْتًا في سَحَابَة: اسْق حَديقَةَ فُلاَن، فَتَنَحَّى ذلك السَّحابُ فَأَفْرَغَ ماءه في حَرَّةَ - الأرض المُلَبَّسة حجارةً سوداء - فَإِذَا شَرْجَةٌ من تلك الشِّرَاجِ - مسيل الماء - قد اسْتَوْعَبَ ذلَك الماءَ كُلَّه.

فَتَتَبَّع الماءَ فإذا رَجُلٌ قائمٌ في حَديقَته يُحَوِّلُ الماءَ بمسْحَاته «فأسه» فقال له: يا عبدَ الله! ما اسْمُكَ؟

قال: فلان.. للاسم الَّذى سَمعَ في السَّحَابَة.. فقال له: يا عبَد الله! لِمَ تَسْأَلُني عن اسْمي؟ فقَالَ: إنِّي سمعتُ صوْتاً في السَّحاب الَّذي هَذا

(١) مسلم ج ١٢ / ٥٠ - ٥١.

ماؤُه يقـول: اسْق حديقة فُـلان.. لاسْمكَ فـما تَصْنَعُ فيـها؟ فقـال: أما إذَ قُلْتَ هـَـذَاَ.. فَـإنِّي أَنْظُرُ إلى مـاً يَخْـرُجُ منْها: فَـأَتَصَـدَّقُ بثُلُثـه. وآكُل أنا وعيالي ثُلُثاً وأَرَدُّ فيها ثُلُثَه».

إنه فلاح بسيط.. قد يكون أميًا .. لا يفك الخط.. كما يقولون!

وقد يكون لهـذا الفلاح أخ مدير يأمـر مرءوسيـه وينهاهم.. وهو قرير العين بحَفْنةٍ من البشر جعله الله أميرًا عليهم..

لكن أخاه هـذا الفلاح قـد استطاع أن يجعل قوى الكون تقف إلى جانبه.

وأن يتحدى الجفاف بطاعة ربه وشكره فسخر الله له الريح.. تسُوق إليه السحاب.. ليصب في بستانه بالذات.. هـذا الماء الفرات!

ولم يكن هـذا التسخير جزافًا.. وإنما استنزله الفلاح بعمله:

لقد كـان مخلصـا لدرجة أنه لم يبح بخطتـه في حيـاته إلا بعد أن سأله الضيف الطارئ..

وذلك واضح من الفلاح حين قال: [أما إذ قلت هـذا..]

يعني.. لا مفر من الإعلان بعد أن سألت عن السبب..

وقد لخص خطته في الحياة على النحو التالي:

لمجتمعه الثلث.. فما عاش من عاش لنفسه قط..

إنه يملك حسًا اجتماعيًا بصيرًا.. وإن له انتماء لأمته فرض عليه أن يرد إليها الجميل..

على أن ما يدفعه لأمته سوف يرتد إليه أمنًا وسلامًا ورخاءً..

ومع هـذا الحس الاجتـماعي فقد كانت له عنايـته بأسرته التي أبقى

لها الثلث. .

ثم تمتـد في وعيه آمـال الخصْب والنمـاء. فيـرد إلى الأرض الثلث الباقي بذوراً يسـتمر بها الخـصب والنماء. . وتبقى الأرض عـامرة بحب الحصيد. . ولتجد الأجيال المقبلة ما تأكله.



الفلاح
والنظرة إلى المستقبل

لم يعش هـذا الفلاح في حدود نفسه ولكنه تمثل روح الإسلام الداعية إلى العمل الخصْب المتراحب.

وكان مشغولاً بالأجيال المقبلة حاملاً على كاهله همومها..

ونذكر هنا: عندما أراد بعض الصحابة (ﷺ) قسمة أرض العراق عليهم فقال لهم عمر: أتريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء؟!

ورحم الله ذلك الفلاّح الذي عرف زمانه واستقامت طريقته.

وكانت ثروته الحقيقية في قيمه الأصيلة التي نحتفل اليوم بذكراها.

ونناشد الكبار الذين هجروا الريف.. أن يعودوا إليه.. إلى البسطاء من أهلينا.. ففي قلوبهم كنوز من الود مطمورة.. وفي عقولهم شعل من الذكاء تنتظر اليد الصنّاع القادرة على استثمار هـذا الود.. وهـذا الذكاء لصالح الدين والوطن.

وفي غمرة هـذه الجهود البشرية المبذولة لإسعاد الفلاح ينبغي ألا ننسى الجانب الإلهي في القضية وهو:

طاعة الله (عز وجل) وما تثمره من خصب ورخاء يصبه الحق (تعالى) صبًا متى حقق المسلمون :

١- **الإخلاص:** الذي يشكل قاعدة الانطلاق إلى مستقبل أفضل.

٢- **الحركة الدائبة من أجل أسرة مكفولة الحاجة**.. ومجتمع له في

عنق المسلم حق معلوم..

٣ - وقبل ذلك الاستغفار الذي هو في جوهرة استدبار للدنيا الملهية.. وتغيير للاتجاه حين يفرد المسلم شراعه مُسْلَمًا وجهه إلى الله (تعالى).

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى هذا من مثل قوله (تعالى): ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

إن الاستغفار عملية تطهير.. وليس هناك فاصل زمنى بين الاستغفار.. وقبوله.. بل إن الحق (تعالى) غفار دائمًا.. وأبدًا.. يقبل العائدين إليه.. والمشكلة تكمن فينا نحن.. فإذا استغفرنا فنحن في دائرة القبول وفي نفس اللحظة.

ومغفرة الله (تعالى) لا تقتصر على مجرد العفو عن ذنوبنا.. ولكنه الخير والنماء والذي يتمثل في:

١ - ماء ثجاج يحيى به الله أرضًا مواتًا...

٢ - ثروة ضخمة ينتعش بها اقتصاد الأمة التي تستثمره في مشروعات الخير.

٣ - قوة بشرية تحسن استغلال الماء.. والمال لتتحول الأرض إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار..

الحركة المباركة:

فإذا وُجد الإخلاص كقاعدة للنشاط الإنسانى ثم كان هذا النشاط إسعادًا للأسرة ورفاهية للمجتمع فقد اكتملت الصورة وتم البناء ..

وهبط الخير من السماء وتفـجر من الأرض، فأكلنا من فوقنا، ومن تحت أرجلنا:

﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فالإيمان هو الموجه للثروة والطاقة لتكون في خدمة المثل العليا..

والتقوىٰ هى الحركة المباركة التي يستحيل بها المسلم خلية حية تنشر السلام وتعمر الأرض وتسعد الدنيا.



من مظاهر حب الوطن

كلنا يحب الوطن.. لأن حب الوطن من الإيمان.

ولكن القضية: هل أنت مستعد أن تدفع ثمن هذا الحب من نفسك ومالك؟

كثير من الناس يعبرون عن حبهم لوطنهم بأناشيد يشقون بها الحناجر شقًا أو مظاهرات يرفعون فيها شعارات التمجيد والتغنى بما قدَّموا للحياة من أفضال.

أما عندما يكون البذل واجبًا.. فإنك تفتح عينيك على كثير.. ولكن لا ترى أحدًا.. جعجعة ولا ترى طحنًا.. إن الكلمات ليست هي الأفعال.. وما تزال المسافة طويلة بين أفواهنا القائلة.. وأيدينا العاملة.

وقد تدل الأعمال الضخام الملفتة على حبك لوطنك .. بقدر ما يؤكد ذلك الحب ما تقوم به من أعمال عفوية... قد تكون ضئيلة الحجم.. لكنها بليغة الدلالة على ولائك له..

وبنفس النسبة يكون قصورك في حق وطنك بما قد تزاول من تصرفات عفوية لا تلقى لها بالا... لكنك تهوى بها في النار إلى ما يشاء الله من أعماق.

خذ مثلا ذلك التقرير الذي أذاعته إدارة الشئون الفنية بسكك حديد مصر:

يقوم بعض راكبى قطارات السكك الحديدية عمدًا بإتلاف مقاعد عربات الركاب، وكسر زجاج النوافذ أو نزعه.. وإتلاف صنابير المياه

ونزع مواسيرها.

ومما يذكر أن إحدىٰ هيئات الصيانة بالقاهرة تقوم شهريًا بتركيب هٰذه الأصناف جميعها.. والتي جاءت نتيجة الإتلاف العمد أو سوء الاستعمال.. وقد أحصت الهيئة هٰذا التالف شهريا فكان الناتج مزعجًا حيث يبلع آلاف الألواح من الزجاج ومئات الأمتار من غطاء المقاعد إلىٰ جانب ما يفسد من مرافق الأبواب.. وأجهزة إطفاء الحريق والتهوية وتلوث مياه الشرب.. بما يساوى آلاف الجنيهات شهريًا.

وهٰكذا تمتد اليد الطائشة المستهترة مع أخواتها في مواقع أخر علىٰ مستوىٰ الدولة التي تصلح ما أفسد الإهمال.. والعابثون لا يشعرون.

لا يشعرون أنهم باسم الوطنية آثمون وقبل هٰذا.. وفوق هٰذا: بمقياس الدين أيضا آثمون!.. وإن صلُّوا.. وصاموا.. وتهجدوا!

لقد كان السلف الصالح أعمق حساسية.. وأصدق تعبيراً عن روح الإسلام عندما حافظوا علىٰ الخيط الرفيع.. أن يضيع.. واستثمروا لصالح الأمة حتىٰ الرقاع البالية المطروحة علىٰ جانبي الطريق:

أوصىٰ أبو بكر (ﷺ) أن يكفن في ثوب قديم.. ليبقىٰ فرق الثمن بين الجديد والقديم رصيداً يسهم في إسعاد الأمة بإنْعاش اقتصادها..

وكان عمر (ﷺ) يجمع الخرق البالية المطروحة ثم يسلمها إلىٰ النساء في البيوت.. استثماراً لخامة من خامات الأمة.. تستغني بها عن غيرها من أمم الأرض.. وإذا رأينا من شبابنا اليوم من يتمثل أبا بكر وعمر في المسجد قانتين ساجدين لله (تعالىٰ).. فإننا نناشدهم أن يتمثلوا مشهدهم في الشارع الإسلامى وهما يعبّران عن روح القرآن الذي كان وسيظل أكثر تقدمية من كل مذاهب الأرض، وإذا كان هناك من

يستهويهم في الخليفة لحيته الشهباء . . فعليهم أن يلاحظوا حبات العرق كاللؤلؤ تتوج جبهته العالية . . .

وليفهم قادة الأمم أيضا ذلك الدرس الذي يلزمهم كلمة التقوى المانعة من إتلاف مرافق الأمة . . والمحافظة على أدق أمورها . . ناهيك بحماية الأرواح حتى لا تضيع في دوامة الطموح والجموح . .

إن هذا الحق . . ثقيل . . لكنه مرىء . . وإن الباطل خفيف . . لكنه وبىء .

وليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ . . فهذا سهل : ميسر للحمقى . ولكن المصلح : من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله بعد موته .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى



خبر ... وتعليق

«إن أبسط التصرفات الشخصية في حياة كل مواطن يمكن أن تؤثر تأثيراً مباشراً على حياة الاقتصاد المصري.

هذه هى الحقيقة العلمية التي أعلنتها دراسة قام بها معهد التخطيط القومي حول «الفاقد اليومي» لرغيف العيش والذي وصل إلى: خمسة ملايين رغيف تذهب كل يوم إلى «صفيحة» الزبالة!

فمن يوقف هذا النزيف المدمر؟!» الأهرام ١٢/ ٩/ ١٩٨٥

فما معنى إلقاء اللقمة الصالحة للأكل في صندوق الزبالة؟

معناه: غفلة عن نعمة من نعم الحق (سبحانه) أفقدتنا الألفة الشعور بأهميتها.. فلم نشكرها بالحفاظ عليها.. ومعناه أيضًا غياب الحس الاجتماعى الذي لم يستشعر ملايين البشر المحتاجين إلى لقمة مضمومة إلى أختها تصير رغيفا ينقذ الله به نفسا من الموت في بلاد الإسلام!

وإذا تساءل المحرر المذعور من نتائج هذا الإهمال عن المنقذ.. فلا منقذ إلا الإسلام الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وقضى فيها بحكم وأصدر بشأنها توجيها..

فماذا عن توجيهات الإسلام في هذا الباب:

روى الترمذى: أن النبي (ﷺ) قال: «**إذا أكل أحدكم طعاما. فسقطت لقمته. فليمط ما كان بها من أذى، ثم ليطعمها، ولا يدعْها للشيطان**».

إن المسلم مطالب بالحفاظ على اللقمة.. شريطة الحفاظ أيضًا على قواعد الصحة والنظافة .. فإذا تصورنا آلاف الملايين من البشر يفعلون ذلك تحصلت لنا ثروة هائلة ... تطعم ملايين الجياع في بلاد المسلمين.

فإذا صار ذلك شرعة جماعة فإنها تسد أحد مسارب الطاقة فيها .. بقدر ما تقيم أفرادها على أخلاق التقشف .. والقناعة .. وتفرّ بهم من إهمال النعمة وما فيه من ترف يترك على النفوس آثاره: تسيبا .. وعدم مبالاة .. يضيع بها الانتماء إلى الوطن أو يكاد.

وإذا كان هدف الشيطان كما نصت الآية الكريمة أن [يحزن الذين آمنوا] فإن اللقمة الملقاة في الزبالة عبثًا .. تلقي لحساب الشيطان الذي تحقق بالتخلص منها بعض مآربه!.

ولا يقف التوجيه الإسلامي عند حد الاحتفاظ باللقمة..

بل إن الرسول (ﷺ) يوصي بأن نلعق الأصابع بعد الأكل.. وأن نلعق الصحفة أيضًا :

كان رسول الله (ﷺ) إذا أكل طعاما لعق أصابعه الثلاث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى

وفي تعليل ذلك يقول: «إذا أكل أحدكم فليلعق أصابعه، لأنه لا يدري في أيتهن البركة» [أخرجه مسلم والترمذي].

وروى أيضا «وأمرنا أن نسلُت[1] القصعة» [أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي].

وإذا استغرب بعض المسلمين اليوم من هذه الآداب النبوية الكريمة... فلأن الوعي غائبٌ عن تفقدها في مظانها .. إذ هو مشغول

(١) السلت: النحت والإزالة.

باستيراد آداب الموائد من الشرق أو الغرب . . والتي بلغ في تقديسها حدًا أن يرمي بالرجعية والتخلف كل من حاول رجع هذه الآداب إلى أصلها الإسلامي . .

وإذا جاز لأمتنا أن تستورد أدوات للأكل . . فما يجوز لها أن تتجاهل نداء الإسلام في كيانها . . هذا النداء الذي ما يفتأ يذكرها بنعمة الله صغيرها وكبيرها . . فطعم النعمة في الأمر الصغير . . كطعمها في الكبير . . مادمنا نستشعر عظمة المنعم . . لا حجم النعمة . .

وإن نظرة واحدة إلى أكوام «الزبالة» في بعض بلاد الإسلام كافية لإقناعك بغياب الوعي الإسلامي . . في الوقت الذي تتشدق فيه . . بالإسلام! ومؤكدة في نفس اللحظة أن قَدْرًا هائلاً من سنة رسول الله (ﷺ) لا يجد من يقدره قدره . . فيلتزم به اكتفاء بسنن لا تكلف مالاً . . ولا جهدًا مع أهميتها بطبيعة الحال .

وإذ يسعد الإسلام باستجابة المسلم في موطن . . فإن سعادته لتربو إذا جاءت الاستجابة محققة معنى الأخوة الإسلامية . .

الأخوة التي لا تفرض عليك فقط أن تجود بالكثير . . ثم ينتهي دورك . . وإنما أن يظل ضميرك صاحيًا . . حارسًا . . موصولاً على مدى اليوم كله بإخوة لك على الطريق . . لا تنساهم حتى فيما يدق من أمور حياتك . . إنهم في وعيك دائمًا .

ومن رحمة الله (تعالى) بأمتنا أن يهزها هزًا موجعًا بهذه الأرقام المذهلة . . لتصحو من نومها . . ثم تفرك عينيها لتشخص الداء وتبحث عن الدواء .

إن أعتى الاقتصاديين في العالم لن يحلوا مشكلاتنا الاقتصادية . .

ولماذا نلجأ إليهم وبلادنا ليست فقيرة في رجالها . . ولا ضنينة بالمواهب القادرة على الإمساك بالدفة وقيادة السفينة إلى بر الأمان . . متى نظرت إلى المشكلات في ضوء الإسلام الذي يمنحها من لدنه حلها .

وإذا عجز الأجانب عن حل مشكلاتنا . . فإن القوانين واللوائح أيضًا لأشد عجزا ما بقيت مقطوعة الصلة بالإيمان. . ذلك الإيمان الذي يقف دائما وراء كل خطة ناجحة: فلا بد . . ونحن ندعو إلى التقشف والمحافظة على ثروة الأمة من إقناع الشعب بخطتنا وجدواها. . وهذا الإقناع لا يباع في الأسواق . . ولكنه متاح لنا . . وبين أيدينا . . يعرض نفسه. . ويلح في العرض ولا يبقى إلا أن نستجيب لندائه طائعين . مادام صادرا ممن لا ينطق عن الهوى.

ومن سخريات القدر أن نسرف ـ في نقد أمم تلقى بفائض القمح والبن في البحر طعاما للحيتان . . وتحرم منه الإنسان . . ثم نفعل نحن مثلما فعلوا!!

بل أقسى مما فعلوا! إنهم على ـ الأقل ـ منطقيون مع أنفسهم:

يحافظون على ثرواتهم بكل وسيلة وإن كانت على حساب عمر الإنسان. .

أما نحن فلحساب من نبدد هذه الثروة؟ إننا نبددها باختيارنا . . وهدمًا لاقتصادنا!

وما زلت أذكر أول درس في علم الفقه تلقيته عن أستاذي وكان في الوضوء. .

ومما قاله الأستاذ: الإسراف في الماء مكروه ولو كنت على نهرٍ جارٍ. .

وسرحت بخيالى منكرا ما يمكن أن يحدثه الإسراف في الوضوء في النهر العظيم . . والذي لا نأخذ منه إلا كما يأخذ المخيط؟!

ولكننى فهمت ـ من بعد ـ حكمة الشارع الذي يريد أخذ المسلم بقيم: العدل. . والاقتصاد . . والنظام. . بقدر ما ينأى به عن الإسراف . . والخلل . . والاضطراب في تناول أمور حياته. .

إن المجتمع لتحدث له أقضية بقدر ما يحدث من فجور كما قال عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه). .

وليست المشكلة أن يحدث الخلل . . فتلك طبيعة المجتمع العامل المتحرّك. ولكن المشكلة تكمن في: أين الحل. .

وعلينا أن ندخل مبادئ الإسلام في حسابنا ونحن نتصدى لحل مشكلاتنا . . وإلا . . فلا نلوم إلا أنفسنا.

وبالله التوفيق



من التوحيد إلى الوحدة

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩].

تمهيد:

أرأيت إلى الجوهرة النفسية يلهو بها طفل صغير؟

إنه لا يعرف قيمتها .. من أجل ذلك لا يبالي بها:

يعبث بها... وقد يلقى بها في النهر .. أو يرمي بها غريمه .. كأنما هي حصاة من الحجر..

وبينما العقلاء من حوله يسخطون. فإنه دونهم يضحك منهم ساخراً..

هكذا نرى في عالم الماديات. فإذا انتقلنا إلى عالم القيم .. وجدنا

أنفس جواهره على الإطلاق هي: حقيقة التوحيد.. وكان لا بد للموحد من وعي بصير بقيمة هذه الحقيقة.

﴿فاعلم...﴾.

فالعلم قبل العبادة

تبدأ الآية الكريمة بقوله (تعالى): ﴿فاعلم..﴾.

والبدء بالعلم سبيلا إلى التوحيد كان وصاة السلف الصالح؛ ضمانا لسلامة المسير.

يقول الحسن البصرى(رضي الله عنه): «العامل على غير علم.. كالسالك على غير طريق.

والعامل على غير علم .. ما يفسد أكثر مما يصلح.

فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة ... واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم.

فإن قوما طلبوا العبادة ... وتركوا العلم .. حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)».

ولا ننسى هنا قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا .. ثم أكملها مائة بالعابد الذي تجهم له.. وآيسه من رحمة الله .. بينما نجح المفتي العالم العابد .. والذي وصل به إلى بر الأمان.

على أن حقيقة التوحيد لا ترسخ في القلب.. إلا بالوعي المستنير:

لأن الذي يستقبل حقيقة التوحيد بعقله الواعي .. وقلبه المتفتح ... فإن التوحيد يثمر في نفسه ثمرات يانعات يصير بها مؤمنا كامل الإيمان.

بينما تظل هذه الحقيقة غائمة غامضة في عقول غافلة.. وقلوب ذاهلة .. لا تدرى قيمة ما تملك من ثروة تزري بكل ما يملك الناس وما يدخرون.

من التوحيد إلى الوحدة:

وعندما تستقر عقيدة التوحيد في قلوب المؤمنين .. كانت الوحدة أولى ثمارها المباركات..

وبالتوحيد .. والوحدة تأخذ الأمة سمتها إلى المعالي.. بما يمنحها

التوحـيد من طاقة دافـعة وما تثـمره الوحدة من تنـاسق خطَوِ الأمة على الطريق . . ثم في انسجامها مع حركة الكون . .

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد



الطريق إلى الوحدة

ولكن كيف تصبح وحدة الأمة حقيقة واقعة؟

والإجابة القرآنية هنا: بالاستغفار.. بتطهير النفس.. نفسك أولاً. ثم بإشاعة الطهر في حياة الآخرين.

حتى إذا بَرِئْتَ من عِلَلِك.. فَصَحَّتْ نفسك.. وزكا قلبك.. ثم كنت في عون الآخرين ليكونوا مثلك طائعين أطهارًا.. كان ذلك سبيلاً إلى مجتمع فاضل.. يتآلف فيه الصادقون.. والأوفياء.. جسدًا واحدًا ينطلق من قاعدة الإخلاص.. إلى تحقيق أهداف الإسلام.. في الوقت الذي تُفرِّق فيه المعاصي بين المنحرفين.. فيهدم كل واحد فيهم.. ما يبنيه الآخرون... ولا يبلغ يوما تمامه..

مراحل منهج الإصلاح:

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ..﴾ [محمد: ١٩] محددة أولى مراحل الإصلاح على النحو التالي:

فالخطاب للرسول (ﷺ)، والمراد به أمته..

وإذن.. فلكل واحد ذنبه.. لأن البشر ليسوا ملائكة.. وعلى كل مسلم أن يأخذ حذره أولاً حتى لا يقع في حبائل الشيطان..

من الهدى النبوى:

وقد كان (ﷺ) ـ وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. كان يسأل ربه دائمًا: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب**» هكذا يضرع إلى ربه (سبحانه) إرشادًا لأمته ـ حتى

تستعين بالله (تعالى) . . ليقيها مواطن السوء حتى لا تتورط في المعاصي ابتداء.

فإذا نزغها من الشيطان نزغ . فرّت إلى ربها تدعوه بما دعا به رسولها الكريم:

«اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس» .

بهذا المعنى تصير حياة الإنسان كدحًا إلى ربه . . ليخلصه من كيد الشيطان تحريرًا لإرادته، وطهارةً لقلبه؛ ليصبح جنديًا في معركة البناء . . التي يخوضها ببنية صحيحة.

أخطر الذنوب:

وإذا كان من الذنوب الكبائر التي من شأن الإنسان أن يتوقاها . . فإن هناك من الذنوب ما دق، وخفي بحيث يسري في بدن الإنسان كالسم البطيء لا يشعر به . . وهنا يكمن الخطر:

قال السرى السقطى:

«خفيت عليَّ علة في نفسي ثلاثين سنة: وذلك أنَّا كنا جماعة . نبكِّر إلى الجمعة . . ولنا أماكن قد عُرِفَتْ بنا . . لا نكاد أن نخلو عنها.

فمات رجل من جيراننا يوم جمعة، فأحببت أن أشيع جنازته فشيعتها، وأضحيت عن وقتي ـ أى تأخرت ـ ثم جئت أريد الجمعة.

فلما أن اقتربت من المسجد، قالت لي نفسي: «الآن يرونك» وقد أضحيت وتخلفت عن وقتك

فشق ذلك عليَّ، فقلت لنفسي: أراك مرائية منذ ثلاثين سنة، وأنا لا أدري.

فتركت ذلك المكان الذي كنت آتيه، فجعلت أصلي في أماكن

مختلفة، لئلا يُعرف مكانى».

وتأمل قلب هـذا العارف .. الذي تعلق بالمسجد..

وتصور مـاضيه النظيف .. الحـافل بالعلم .. والعمل .. والورع .. ثم تعجب كيف استطاع الشيطـان المريد مع هـذه الحراسة المشددة من ذكر الله واللجأ إليه .. ولزوم بيته.. كيـف استطاع اختراق هـذا الحصار ثم التسلل في غفـلة منه.. ليضع في قلبه نفحة مـن الرياء .. لم يشعر بها إلا بعد مضي ثلث قرن من الزمان.

وعليك أن تتعلم الدرس أخيـرا.. لتضع قلبك في نقطة الضوء.. حتى لا يصل إليه الشـيطان .. فتُؤتَى من قبل علة في قلبك خـفية... أحس بها العابد الزاهد .. بعد ثلاثين سنة .. قـد تكون بالنسبة لنا قرنا كاملا من الزمان .. ومع هـذا فقد لا نُدركها!

إن جوهر الإنسان الحقيقي لا يُرى بالعين المجردة. وهو: القلب..

ومن ثم كانت الـعناية به في مقدمـة مهـام المسلم.. ليكون القلب أكثر شفافية.. وانفعالا بالحق .. وإقبالا عليه.

قال التابعي شميط بن عجلان:

«إن الله عـز وجل جعـل قوة المؤمن في قلـبه، ولم يجـعلهـا في أعضـائه: ألا ترون الشيخ.. يكون ضـعيفـا: يصوم الهواجـر، ويقوم الليل، والشاب قد يعجز عن ذلك».

وكثـير من الناس يملكون أجسـاما تزحم الفضاء طولاً وعـرضًا .. ولكنها «مذياع» بلا بطارية .. بلا طاقة..

وهب أنك في حجرة .. ومعك مذياع: إنه يستطيع أن يزودك بكل أصـوات الدنيـا .. ولكن لا بد من بـطارية.. لتـسـمع.. وتفـهم..

وتعمل.. وهكذا القلب!

وهكذا قال العلماء.

إن بداية الإصلاح إذن تبدأ من داخل المسلم أولاً.. وعليه أن يصرف همه . ابتداء ليتخلص من كيد الشيطان... ويمكن أن تبدأ الرحلة كما حدد معالمها العارفون هكذا: لو شَكَّ العبد في إنسان.. فإنه يتوقاه ويحذره..

فكيف لا يتوقى الشيطان ويحذرُه مع أنه أعلن عداوته للإنسان في تحد سافر.. وذلك قوله (تعالى): ﴿**لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الأعراف: ١٦]

ثم.. إن المعصية تعني أول ما تعني: أنك تُرضي الشيطان .. وتغضب ربك (سبحانه و تعالى) وهو المنعم المتفضل .. بينما واقعك البشري ينكر هذه المعادلة الصعبة ...

فلو كان لك جار.. فاسق .. يؤذيك. ثم أمرك فأطعته .. لكنت جاهلاً.. فكيف ترضى لنفسك أن تُرضي من يزج بك في مهاوي الضلال.. ثم تُغضب من توالت عليك نعمه (سبحانه و تعالى؟!).

الواقعون في حبائل الشيطان:

وأحيانا يلطف كيد الشيطان .. حين يتفنن في تزيين المعاصي .. فيوسوس لك أن ترشِيَ غيرك لتحقيق مأرب.. ثم يمضي بك في رحلة الوسوسة إلى نهايتها حين يقنعك بأن ما فعلته ليس رشوة .. ولكنه شطارة.. ولأن الوصف هنا يغرينا.. ويستر عيوبنا .. فنحن نرضى به .. ناسين أننا نقع في ثلاث جرائم في نفس الوقت أشار إليها المربون.

١ ـ جريمة الرشوة .. نأكل بها حقوق الناس.

٢ ـ ثم تزييف الأمور . . بشهادة الزور.

٣ ـ ثم تشجيع الآخرين ليكونوا مثلك شطارا . . بالرشوة المقنعة!

المعركة الحقيقية:

المعركة الحقيقية إذن . . هي معركتك الشخصية أولا . . مع عدوك المبين: الشيطان الرجيم. وذلك ما تشير إليه الآية الكريمة: فهناك ذنوب. . وأنت مطالب بالبراءة منها . . عن طريق التضرع إلى ربك (سبحانه) ليمحو ذنوبك . . ويستر عيوبك . . إنها ذنوبك أنت شخصيًا . . كما تفيد «لام» الاختصاص: ﴿لذنبك..﴾.

فإذا تجاوزت هذه المرحلة بنجاح . . بَدَأَتْ جولتك الثانية . . في محاولة لتخليص الآخرين من كيد الشيطان . . شكرا منك لمن نجاك من كيده . . وهو الله (سبحانه و تعالى).

سعداء في أمة سعيدة:

إذا سعد جريج (ﷺ) في صومعته بعبادته. فلن تتم له هذه السعادة إلا بقسمتها على الآخرين . . ليشاركوه فيها. . وإلا . . فما قيمة الإنسان لو كان غنيًا . . وحوله فقراء لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا.

ما قيمة صحتك التي تتفجر عافية من جسمك . . في مجتمع مريض؟

سوف تنطفئ جذوة السعادة في قلب الغني . . الذي لن يجد أخًا له يطارحه السعادة . . ويبادله المودة . . ولن يكون للصحة معنى وسط مرضى يملأون سمعك أنينًا وبكاءً يفسد طعم الصحة في كيانك.

ونقول بنفس القوة:

إذا أنعم الله على المسلم بالطاعة.. فلن تتم سعادته إلا إذا أطاع الآخرون.. فكانوا مثلك على القمة العالية.. فإذا عصَوْا .. فلن تتم نعمتك إلا بالإشفاق عليهم .. والتودد إليهم .. لعلهم أن يرتفعوا إلى مستواك ، لتكونوا في الطاعة سواء.

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ .. وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ..﴾ [محمد: ١٩] أي: استغفر لذنوبهم..



حق المسلم

ويتأكد حق المسلم في الإشفاق عليه، والتودد إليه . . إذا ما تذكرنا حرص الإسلام على حق الكافر المعيَّن في الاحتياط له . . فلا ندمغه بالكفر الصريح . . إنصافا له إلا بعد التأكد بالحجة الدامغة من هذا الكفر فهل يستقيم في العقل أن نضيق على المسلمين . . فنضن عليهم بحق فاز به الكافرون!

يقول الشيخ ابن تيمية (رحمه الله):

«إن القول قد يكون كفرًا ، فيُطلق القول بتكفير صاحبه . . ويقال: من قال هذا فهو كافر.

لكن الشخص المعين . . الذي قاله . . لا يحكم بكفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها وهذا كما في نصوص الوعيد: فإن الله (تعالى) يقول: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ١٠].

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق . . . لكن الشخص المعَّين لا يشهد عليه بالوعيد. فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار. لجواز ألا يلحقه الوعيد . . . لفوات شرط أو ثبوت مانع . . فكيف لا يكون التحريم بَلَغَه وقد يتوب من فعل المحرم.

وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة المحرَّم.

وقد يبتلى بمصائب تكفِّر عنه . . وقد يشفع فيه شفيع مطاع

ثم يقول: وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها: قد يكون الرجل لم

تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق.

وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده.. أو لم يتمكن من فهمها.

وقد تكون قد عرضت له شبهة يعذره الله (تعالىٰ) بها.

قال: ومذاهب الأئمة مبنية علىٰ هـٰذا التفضيل بين النوع والمعيّن»[1].

ويعني بذلك: أنه يجوز لك أن تحكم علىٰ جماعة بالكفر لرفضها حكم الله (سبحانه).. وهـٰذا حكم علىٰ النوع.

أما إذا تعلق الأمر بشخص بعينه، من هـٰذه الجماعة وجب التثبت قبل الحكم.

وإذا كان من حق الكافر المتمرغ في الطين أن نعينه.. ليكون معنا فلمصلحة من يحاول بعضنا جر المسلم العاصي إلىٰ حمأة هـٰذا الطين!



(١) من الرسالة المردانية لابن تيمية.

منهج في معاملة الخطائين

ذكر «الدارمي» في باب «إعظام العلم»: يقول عبّاد بن خواص مخاطبا أهل العلم: [لا تعيبوا البدع تزّينا بعيبها؛ فإن فساد أهل البدع ليس بزائد في صلاحكم. . .ولا تعيبوها بغيًا على أهلها . . فإن البغي من فساد أنفسكم.

وليس ينبغي للطبيب أن يداوي المرضى بما يُبرئهم ويمرضه. . فإنه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم. .ولكن ينبغي أن يلتمس لنفسه الصحة ليقوى به على علاج المرضى.

فليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم: نظرًا منكم لأنفسكم. . ونصيحة منكم لربكم. . وشفقة منكم على إخوانكم. . وأن تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعْنَى منكم بعيوب غيركم].

وتلك خطة الإصلاح التي يلتزم بها المؤمن . . أو هكذا ينبغي أن يكون:

١ ـ لا يتخذ من عيوب الآخرين مسلاة له . . تشهيرًا بهم . . قد يثير فيهم العناد والتحدى.

٢ ـ تنحية مشاعر الكبر . الذي يفسد القلوب. . فتتعطل في كيان الداعية آلة الإصلاح.

٣ ـ أن تنطلق النصيحة من قاعدة الإخلاص لله (تعالى).

٤ ـ أن تتجه بالنصيحة محكومًا بالشفقة على أخيك المسلم الذي يقبل عليك كطبيب مداو.. لا كقاض حاكم..

٥ ـ أن ترصد أكثر جهدك لإصلاح نفسك أولاً .. ليكون صلاحك سببًا آخر يشعر به المذنب فيزداد إقبالا عليك.

أصحاب القلوب الكبيرة:

وأصحاب القلوب الكبيرة من الدعاة يسَعُون الخطائين دائمًا:

إن أحدهم قد يرى العاصي متألمًا.. فيتألم أكثر منه.. وقد يرى من هو سعيد بطاعته فيكون أسعد منه..

وهكذا تتوارى حظوظ النفس .. ليكون الولاء للحق أولاً .. وأخيرًا.

وحدة المؤمنين:

إن المنحرفين ليتنادون اليوم بالويل والثبور وعظائم الأمور في محاولات خلخلة الصف المؤمن..

فهل نتركهم ليقضوا علينا؟

كيف يتحد اللصوص .. بينما أصحاب البيت تحت سقفه مختلفون؟

إن للشر جمعًا هو: شرور.. أما الخير.. فهو مفرد.. وسيظل مفردًا!

فما لهؤلاء الأخيار يختلفون؟

قيل لبعض الحكماء: أنت تدعو للخير والسلام بين الناس . ولكن دعوتك كثيرا ما تضيع بين صليل السيوف، ودوى المدافع، فما تفسيرك

لهـٰذه الظاهرة!

لماذا ينتصر الشر على الخير في كثير من الأحيان؟ فقال: هناك حقيقة يجب أن تعترف بها وهي: أن الأشرار دائما يتحدون . ويقفون صفًا واحدًا . رغم ما في نفوسهم من كراهية بعضهم البعض. . . أما أهل الخير فهم متفرقون، وهـٰذا سر ضعفهم !

غضبة مضرية:

فهل من سبيل إلى غضبة مضرية إسلامية تعود بنا أمة واحدة؟

ألا فليعلم كل مسلم أن مسئوليته عن هـٰذا التفرق مباشرة. . وأنه مع غيره مشمول بعلم الله (تعالى) . . محكوم بقدرته (سبحانه). . فليحذر أن يخالف عن أمره ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].



من فقه الزكاة

مشكلة الفقر بين

ذكاء الشطار... وزكاء الأخيار[1]

أهمية الزكاة:

إذا كانت العبادة تعني: تعظيم الخالق (سبحانه). والشفقة على خلقه..

وإذا كانت الصلاة علاقة رأسية نستشعر بها عظمة الخالق (جل وعلا).. فإن الزكاة انعكاس لمشاعر الإشفاق على الخلق وهم عياله (سبحانه)..

بل إن الزكاة ملتقى الشعبتين معًا:

فهي عبادة نعظمه بها (سبحانه).. حين نستجيب له بالإنفاق.. إلى جانب كونها سلوكًا اجتماعيًا نعطف به على المحاويج.

صعوبة التكليف:

ولأن الزكاة فريضة تتعامل مع غريزة من أعرق غرائز الإنسان وهي: غريزة التملك.. لأنها كذلك.. فقد كان النهوض بها مهمة صعبة:ـ

أولا: فأنت بالزكاة مطالب بإنفاق ما تعبت في تحصيله. على من لم يتعب فيه معك.. ثم لا دخل لك في تحديد ما تعطيه..

ثانيا: في كيانك غريم مقيم هو: غريزة التملك.. التي ما تفتأ تصرخ فيك.. لا تنفق: فالدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود!

(١) ذكاء الشطار «بالذال» وزكاء الأخيار «بالزاي».

ثالثـا: هناك عدو خـارجى هو الشـيطان الرجيم . . يشـد من أزر النفس الأمـارة فيـهتف بك دائمـا بالشح، على مـا يقول (سـبحـانه): ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] .

ورابعا: لك زملاء تنافسـهم بل تسابقهم ليكون رصـيدك في البنك أربى. ومن شأن هـذا التنافس المذعـور أن يشل اليد عن الإنفـاق إيثاراً للعاجل على الآجل.

وخامـسا: من بين يديك ومن خلفك : أطفـالك زغب الحواصل ـ وهم امتداد حـياتك فكيف لا تؤثرهم بما تقدمـه للآخرين . . وإن كانوا محتاجين!

وسادسـا: لا يكفي أن تحرك يدك بالإنفـاق . . بل لا بد أن ينفعل قلبك بمعنى السـماحة والرضـا . . من حيث كان دافع الصـدقة أهم من حجم الصدقة ذاتها. .

وإذن . . فالمسلم مأمور باقتحام كل هـذه العقبات . . ليصل إلى ما يراد له من كمال. . وعلى هـذا الأساس كانت نظرة العارفين:

قال حكيم: من زعم أنـه لا يحب المال، فهو عندي كـاذب، حتى يثْبُت صدقه. . وإذا ثبت صدقه . . فهو عندي أحمق!

وقال يونس: لو أن الدنيا مملوءة دراهم. وعلى كل درهم مكتوب: من أخذه دخل النار. . لأمْست . . وما على ظهرها درهم واحد.

وقيل: لمّا ضـربت الدراهم والدنانير . . صرخ إبليس صـرخة، ثم جمع أصحابه وقال: قد وجدت ما استغنيت به عنكم في تضليل الناس . . فالأب يقتل ابنه . والابن يقتل أباه . . بسبب المال.

الحل الإسلامي

إذا كانت الأثرة وعبودية الذات منشأ كل تفرق وضياع.. فإن الزكاة تسد هذه الثلمة:

إنها تدريب على التضحية دائم.. هذه التضحية التي ترشح المسلم ليكون من أهل العطاء دائمًا..

يحس الغني بآلام الآخرين على اتساع العالم.

هناك عاجز.. يَقْدِرُ. بالمال.. وعامل.. يتحرك وينتج بالعون..

تلميذ ذكي.. ينهض ويخترع.. أرملة تعف.. وسارق يكف..

في حركة مباركة من ورائها دوافع نبيلة تبعثها الزكاة في قلوب الأغنياء الواجدين.

إنها طاقات معطلة تحييها الزكاة.. والصدقة، لتضاف إلى طاقات الأغنياء.. فيصبح للأمة من طاقات الواجدين والفاقدين كيانٌ واحدٌ!

تآلف القلوب:

ويلاحظ أن شريعة الزكاة لا تستهدف فقط جبر خاطر الفقير.. لكنها بنفس القوة تستهدف الغني المعطي بالتربية حتى يظل عينا ثرة بالخير والبر. ويأبى منطق العدل أن ينصرف الإسلام في رفع مستوى الفقير وتطهير قلبه.. ثم يترك الغني محترق الأعصاب زائغ النظرات وراء ماله الذي اقتطع منه!

وتأصيلا لهذه القاعدة فإن الإسلام لا يكفيه منك أن تتصدق على فقير . . ثم تنتهي مسئوليتك عندئذ . . غير ناظر إلى سد حاجة الفقير . .

ولكن لا بد من أن تحض غيرك . . ويأخذ هذا الحض أو الحث نفس أهمية الإنفاق . . وإلا فقد تنفق . . ثم لا تظل مرتبطا شعوريا بأخيك الفقير فتقف بك السلبية على مشارف خطر عظيم.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

هـ- كيف جبر القرآن قلب الغني:

على أنك غير مكلف بإنفاق مالك كله . . بل بعضه . . ويبقى لك بعد ذلك ما يسد حاجتك وحاجة أهلك وولدك. . على أن تظل على ذكر من أنك لا تملك هذا المال ملكًا حقيقيًا. . أن مالكه الحقيقي هو الله . . وأنت خليفة له (سبحانه). .

ومن شأن هذا الشعور أن يحملك على البذل . . راضيًا . . مادام هذا البذل من مال غيرك الذي يأمرك الآن بالإنفاق.

وذلك قوله (تعالى): ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] .

ويتلطف الحق (سبحانه وتعالى) بعباده من الأغنياء مقدرا أن نسبة هذا المال إليهم وإن كانت لأدنى ملابسة إلا أنها تعطيهم حق التصرف فيه، إرضاء لغرائزهم المتشبثة به ـ فمع أن الله (تعالى) هو المالك الحقيقي، لكنه لا يطلب منك المال عنوة وضغطا . . وإنما يطلبه منك على سبيل القرض الذاهب ببعضه . . والذي يعوضك أضعافه: وذلك

قوله (عز وجل): ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد : ١١] .

إن المشكلة في الإسلام ليست مشكلة طعام . . وإنما مشكلة سلام ينبغي أن يرفرف على الأمة لتظل كيانًا واحدًا. وصفًا واحدًا . . كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا . .

ولا يتوفر هـذا السلام إلا بمثل هـذا الشعور الوجداني الذي يَبقى فيه الفقير أبدا في وجدان الغني لا ينساه . . حتى بعد أن أعطاه.

وإذ تزعم الشيوعية أنها حين توفر الطعام . . فإنها تنشر السلام فإن الوقائع تكذبها بمثل هـذه اللقطة الساخرة:

قالوا: إن كلبا جاء من بلد شيوعى . . فأعد له زملاؤه الطعام . . فقال: لا أريد طعاما . . أريد أن أنبح فقط . . بعد أن حرمت من النباح ! ! .

و- لماذا لم يسمها الإسلام بذلا أو سخاء:

إن الإسلام يستبعد من ساحته كل قول أو عمل لا يؤدى دوره الاجتماعي . .

وإذا كان العرب قد سموا إنفاق المال . . جودا . . وسخاء . . وبذلا . . فإن الإسلام لم يستعمل هـذه المصطلحات . . لأنها تعبر عن حرص النفس على توفر حَظِّها من الرياء والسمعة . .

ولكن الإسلام حريص على أن يكون الإنفاق . . زكاة . . بما يوحيه اللفظ من بركة . . ونمو . . راَجِعَين في الحقيقة إلى ما تؤديه الزكاة في هـذا المجال . . من حركة تسلك الأمة كلها فيما يشبه البوتقة . . لنخرج منها ذهبًا خالصًا . . يشع معاني الخير في كل اتجاه.

ز ـ ومن الناحية العملية:

كان هناك إعداد وتدريب للمسلم على البذل والعطاء.. فقد حرَض الإسلام على البذل حتى في حال فقره .. ابتداء من حافر الشاة إلى ماشاء إلى الله (تعالى)! فأتاح بذلك فرصة ممارسة العطاء لكل المستويات..

ولعل في تقديم الصلاة في الذكر دائما على الزكاة ما يعين المسلم على البذل بتذكيره بالسلطة الشرعية الآمرة بالزكاة ليستسلم .. ثم بما تشيعه الصلاة في نفس المؤمن من أنس تنبسط به مشاعره، فإذا به يحس بآلام الآخرين ممن يمضون معه على نفس الطريق .. إلى ذات الغاية .

يقول الحق (سبحانه): ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ [إبرهيم: ٣١] .

فالله (تعالى) يضيفهم إلى نفسه تشريفًا لهم .. كأنهم خواصه .. وما يترتب على ذلك من يقين بأن ما يكلفهم به إنما هو أشرف العبادات.

ومع أن الصلاة والزكاة من مقتضيات الإيمان .. لكنه (تعالى) يأمرهم بها:

١ ـ لعظم شأنهما.

٢ ـ وتأكد طلبهما.

٣ ـ ثم لما لهما من أثر اجتماعى خطير.

فهما جوهر الدين ، الذي لا يتم إلا بهما .. وكما قيل: ربما صح القوْل القائل: بجعل العمل جزءا من الإيمان، خروجا بالمسلم من إيمان اللسان ، وكفر العمل.

ح ـ من آثار الزكاة :

والوعى بآثار الزكاة في حياة الفرد والمجتمع داع إلى التنافس فيها والمسابقة إليها . . .

وآثار الزكاة واسعة . . عميقة تشمل: الغني . . والفقير وبالتالي المجتمع كله

أما فيما يتعلق بالغني:

١ـ فالزكاة تطهره من رذيلة الشح . . أى من عبوديته للمال الذي ينتقل بالزكاة من قلبه . . إلى جيبه . . وهذا مستوى عالٍ من الحرية يجعل قراره بيده: على حد قول القائل:

لا أجعل المال لي ربًا يصرِّفنى لا .. بل أكون له رباً أصرِّفه
ما لي من المال إلا ما أجود به فذاك لي .. ولغيْرى ما أخلفه

٢ـ انتقال الغني من الاستغناء بالمال . . إلى الاستغناء عن المال . .

أى أن الإسلام يضعك في الموقع الأدبى اللائق بك . . تتويجا لمعركة انتصرت فيها على عدوٍ مقيم.

٣ـ وضع حد لمسلسل الغرور . . . فالإنسان يحب أن يكون قويًا . . والقوة في نظره بالمال . .

وعندما تحصل على المال . . تحس بمتعة حاصلة به . . وهي متعة كجهنم تطلب المزيد!

٤ـ تنمية الحس الاجتماعي . . لأن أخذ النفس بعادة الإنفاق . . أولا: يُهوّن المال عليها . . وثانيا: سوف يَرْقى بالنفس في مدارج الكمال . . عندما يحس بأن حاجته إلى الثواب أشد من حاجة الفقير إلى ماله . . فلهذا الفقير شكره أن مهد له السبيل إلى هذا الثواب.

٥ـ وهنا يتم المعروف كمالا . . عندما لا يكون مَنّ ولا أذىٰ . . بل عبادة تؤدىٰ . . وشكر علىٰ نعمة التوفيق:

إن ابتداء العُرف مجد سابق والمجد كل المجد في استتمامه
إن الهلال يروق أبصار الورىٰ حُسنا . وليس كحسنه بتمامه

٦ـ حين يغيض معين الشح في النفس. . وتنتهي دولة المال المتحكمة فيها ثقة بما عند الله (تعالىٰ). . . يصير الأمر علىٰ ما يقول الشاعر:

ولي بالله إيمان وثيق فمن لكمو بإيمان وثيق
قويتُ به .. فلم أعيا بعبء .. ولا أشكو عثارا في طريقي
ولا أخشىٰ المضرة من عدو ولا أرجو المَبرة من صديقي



الغني يحسن إلى نفسه
قبل أن يحسن إلى الفقير

أ ـ إذا أعطيت الفقير درهما .. راضية به نفسك .. فما معنى هذا؟ ..

معناه: أنك تؤثر نفسك على الفقير .. حين بذلت له المال .. وأخذت عوضك حسنات مضاعفة.. أي: أنه إذا أخذ الأدنى .. فقد فزت أنت بالأعلى .. بالذي هو خير!

وفوق ذلك .. فصدقتك التي مضى بها الفقير.. إنما هي في يده من بذور الخير المدخرة لك .. إلى يوم القيامة .. حيث تصير شجرة مديدة الظل على ما قيل: كل رجل في ظل صدقته يوم القيامة!

ب ـ والمزكي يحقق لنفسه أعظم اللذات .. التي تصير لذةُ الفقير بالأخذ إلى جانبها عارضة وسطحية!

إن من أعظم اللذات: رؤية أثر الإحسان على الفقير.. وسوف تتضاعف نسبة المتعة إذا كان العطاء واسعا.. يتحول به الفقير إلى غني يقف إلى جانبك معطيًا.. فيقصر بذلك طابور المعتمدين عليك .. ليكونوا مثلك في الموقف الأفضل .. والأنبل.

جـ ـ ونذكر هنا قوله (تعالى): ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] .

إنك تتصدق .. فعملك تعبير عن فضيلة التصديق بثواب الله

(تعالى). . ومعنى هـذا: أنك واثق بجدوى صدقـتك: فأنت مقبل عليها . . مشتاق إلى من يتقلبها منك . .

وإذن . . فأنت لا تدفع الزكاة خروجا من العهدة . . وكأنما أَلْقَيْتَ عن كاهلـك حملاً . . ولكنك تحس بأنـك أضفت إلى مُتَـعك . . متـعة جديدة . . وقد يصل بك الأمر إلى مثل إحساس بعض الصالحين . والذي قال: إذا كان أفضل الأعمال أحمزَها ـ أشدها ـ فأنا أخشى ألا أثاب على عملي لأنني صرت أحبه!! بل أعشقه!!

متعة المترفين:

هـــذا هو شـعـور المزكّي المسلم . . والذي يمضي . . وفي صـدره جنته . . فأين منه المترفون؟

قد يتحدثون متبجحين عن المتعة التي وجدوها . . ولكنه الحديث عن السراب! فلذتهم المزعومة في تجاهل المشاعر الإنسانية التي هي في الحقيقة نبع السعـادة: إنهم: يتفاخرون بالأنسـاب . . وبالأموال . . ثم يتنادون من كل فج بالتضامن للحصول على امتـيازات طبقية . . أدبية ومادية . . تكون لهم . . ولا تمنح لغيرهم . . وتلك هي الأنانية الـبغيضة . . والتي ترمي إلى التوسع في الكماليات على حساب ضرورات الكادحين . .

والأنانية تلـد الطمع . . وإذن فلا سعـادة . . لأنه لن يملأ عين ابن آدم إلا التراب . . ومـن بعده يكون العـذاب: عذاب الدنيا ... فـي حمّى هـذا التنافس المسعور . . وعذاب الآخرة بما قدمت أيديهم .

أما بالنسبة للفقير . . يقول الحكماء: احتج إلى من شئت . . تكن أسـيره . . واسـتغْن عـمن شئت تكـن نظيره . . . وأعن من شـئت تكن أميره .

(ﷺ) **من الكذب: ما اطلع على أحد من ذلك بشيء فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة»**[1].

هـ - إبراز القدوة الحسنة المؤكدة .. كيف كان الصدق فعلا منجاة .. أمثال موقف أبى محجن (رحمه الله).



(١) رواه أحمد.

صدق أبي محجن
وقرار الإفراج

وفي معركة القادسية . مرض سعد بن أبي وقاص . ومع ذلك فقد كان يدير المعركة من داره. . . ثم إنه لاحظ فرسه يموج وسط المعركة . وعلى ظهره فارس مغوار . ثم اكتشف أن الفارس الجسور هو أبو محجن . الذي كان بالأمس يشرب الخمر إلى حد الإدمان . فَحكَم عليه بالحبس . ودخل السجن ليقضى مدة العقوبة. . لقد تركه سعد محبوسا . . فما الذي دفع به إلى المعركة؟

شاهد أبو محجن المعركة دائرة بين الحق والباطل . فاشتاق أن يخوضها مع رفاق السلاح. فقال لزوجة سعد: أطلقينى . ولك عليّ عهد الله أن أعود . حتى أضع رجلي في القيد. . فأطلقته. وأعطته فرس سعد.

فلما رأى منه ذلك سعد قال: لن أحبسك في الخمر بعد اليوم. وكان قد أقام عليه الحد ثمان مرات . . يريد سعد أن يثير مروءته ويحرك نخوته ليتركها . فقال أبو محجن: وأنا لن أشربها بعد اليوم . فنفع فيه هذا المقال ما لم تنفع قيود الحديد[١].

لقد استيقظ البطل الذي أسكرته الخمر في كيانه . . ولن يسقط سلاحه بعد اليوم . . وكأنما صهرته المعركة بنارها . . فأحرقت أوشاب الماضي . . ولقد أنجز ما وعد به فنال ما يستحقه من تكريم. وبقيت

(١) رجال من التاريخ.

حياته درسا فـيما يحققه تحرِّي الصدق من فـوز بالنجاة . . بل بالحياة في موقف . . يُملى على التاريخ ما يؤكد عظمة صنَّاع هـذا التاريخ .



الصدق مع النفس

قيل لحكيم: متى عقلت؟ قال: منذ ولدت... فلما تعجب السائل. قال له: بكيت .. حين خِفت.. وطلبت الأكل حين جعت.. وطلبت الثدى حين احتجت.. وسكت حين أعطيت!.. وهٰذه مقادير حاجاتي ... ومن عرف مقادير حاجاته إذا مُنعها. وإذا أُعطيها.. فلا حاجة به في ذلك إلى أكثر من العقل!.

وهٰكذا الإنسان .. منذ وجد الإنسان:

لقد وجد على فطرة الصدق .. والتعبير عن حاجاته بهٰذا الصدق الذي ولد معه .. وفي نفس اللحظة.. والحيوان على نفس الطريق... والحيوان أيضًا يحس بحاجته .. ثم يعبر عنها بالصدق. فالضبّ:

١ ـ يختار لنفسه بيتًا في مرتفع . يقيه من السيل .. متينا.

٢ ـ ثم بعيدا عن وخامة السهل وما يفسد الهواء.

٣ ـ وعلى مشارف أرض فيها من العشب والبقل ما يغذيه.

وفي هٰذا المعنى يقول الشاعر:

سقى الله أرضا يعلم الضب أنها   بعيد من الآفات طيبة البقل
بنى بيته منها على رأس كدية وكل   امرئٍ في حرفة العيش ذو عقل

وهٰكذا الكائن الحي عندما يسير على فطرته: يكون صادقا مع نفسه: فِعْله يَزِين قوله .. وقوله وفعله كلاهما يعبران عن واقع حقيقي .. وحاجة يحس بها فعلا.. ومن ثم يريح .. ويستريح..

أما عندما يتنكر لفطرة الحق فيه.. مستسلما لضغوط البيئة .. وجاذبية المنافع.. فعندئذ يبدأ رحلة المتاعب.. المتاعب التي تنداح دائرتها لتتجاوزه إلى غيره من أفراد المجتمع .. حينما يحاول الكذب على نفسه وعلى الآخرين .. فيفقد عنصر الانسجام بهذا الانفصال الشبكى بين ظاهره وباطنه.

جريمة النفاق:

ولذلك كانت جريمة النفاق أنكى من جريمة الكفر على فظاعتها:

لأنها خداع.. والمخادع مجرم بمرتبتين: جريمة الكذب.. وجريمة التمويه بالصدق

شاهد الزور:

وتأمل خطورة الانحراف عن سواء الصراط .. متمثلاً في صورة شاهد الزور.. وبضاعته الكذب..

ولك أن تتصور من صور الشارع الذي تسير فيه .. مشهد ذلك السائق المتهور .. الذي صدم من أمامه .. ثم صدمه من خلفه وما يترتب على ذلك من ربكة المرور كله ..

وأعد النظر مرة أخرى من الشارع .. إلى الشرع الذي توعد السفاحين من مصاصى الدماء .. وكان إنذاره لشاهد الزور أشد .. لما كان متكئا فجلس منفعلاً غاضبًا.. لماذا؟

أولا: لأن شاهد الزور أولا كذاب والشاعر يقول:

لى حيلة فيمن ينم ... وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة!

وثانيا: ما يتركه تزويره .. وتنكره للحق الصارخ في كيانه .. من

أخطار واسعة المدى:

أ - يكذب على نفسه .. ومن كذب عليها هان في نظرها.

ب - ثم يورط القاضي في حكم خاطئ.

جـ - يسوق حقا لمن لا يستحقه.

د - ثم يظلم صاحب الحق بحرمانه مما يملك.

هـ - وأخيرا .. يضر المجتمع كله بفقد الثقة وضياع العدل .. الذي هو أساس الملك..



خسارة المغتاب

وهـٰذه هي الأسباب:

يقول (ﷺ):

«أتدرون ما الغيبة؟» قـالوا: الله ورسوله أعلم: قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قـيل: أفرأيت إن كـان في أخي مـا أقول؟ قـال: «إن كان فـيه مـا تقول؛فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول.. فقد بهته»[1] .

«أ»

تمهيد:

ربما سوّل الشـيطان لإنسانٍ قـويٍّ أن يغتصب حـقًّا لغـيره.. وربما خطف منحرف الخطفـة نهبا .. ثم هـرب بها لا يلوي على شيء.. إن الظالِـمَـيْن كـليـهـمـا .. في نقطـة الضـوء.. يراهمـا الناس.. وبالتحديد..وعلى أجهزة الأمن والقضـاء أن تقول كلمة الحق فيهما .. برد المغصوب والمنهوب.. لكن اليد لا تقطع هنا..

ومع أن السارق .. قد لا يبلغ ما سرقه عشرَ معشار ما نهبه الناهب .. إلا أن الشرعَ حكمَ بقطع يد السارق!! دون الغاصب والناهب: ذلك بأن السارق خائن: لأنه.. وبيده الخفيفة السريعة .. لا ينكشف أمره .. ومن ثم .. تتسع دائرة الاتهام .. وتعلو علامات الاستفهام أبرياءَ.. قد تشير إليـهم الأصابع .. وقبل أن تَثبت براءتهم .. تكون سمعـتهم وقد نالها من السوء رذاذ . وقـد يطول الزمن قبل أن يعودوا في أذهان الناس كالـعهـد بهم شرفـاء.. وإذن .. فلتقطع يد ذلك الذي عكـر الجو ..

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي

وأشاع الريبة. وليظل هو.. وحده يحمل شارة جريمته.

وهكذا المغتاب في دنيا الناس: ففي إمكانه أن يلاقي خصمه .. وفي رائعة النهار .. فيعاتبُه .. أو حتى يواثبه!.. وفي إمكانه أن يكيل له الصاع صاعين.. هكذا في معركة تدور رحاها على أرض مكشوفة.. وفي ظروف يتمكن فيها المشتوم من الدفاع عن نفسه أمام غريم ينتهب سمعته.. أو يغتصب حقه في العيش الكريم... لكن المغتاب يُفضِّل أن يخوض معركته في الظلام .. وفي غياب الخصم مؤْثِراً أن يطعنه من الخلف .. بدل أن يكون مقاتلا شريفا.. يتحمل مسؤولية المواجهة..

أعذار واهية:

ومع ذلك فقد يحتج المغتاب بما يراه سبيلا إلى براءته من فَعْلته.. كنت في مجلس .. أسمعني فيه صاحبي ما أكره .. من تهم قاسية موجهةٍ إلى صديق بَلَغَهُ أنه أساء إليه.. وفتح عليه النار .. في المجلس .. وبكل الأسلحة.

ثم قال لي بعد أن فعل فعلته: سامِحني يا أخي: لقد قلتُ في صاحبك ما شفَى غليلى .. والآن هدأَتْ نفسى بعد ما أخَذْت بثأرى!

قلت له: لقد خسرت المعركة يا أخي .. وهذا كشف الحساب:

١ـ إذا كانت نفوسنا كالطفل.. نُهدْهدها أحيانا بشتم أصحابنا .. حتى تستريح.. فقد كان من الممكن أن تُرسل إليه كتابا مغلقًا برأيك فيه .. ليخف إليك معتذرا .. أو مُصراً.. في حوار ينتهي .. بلا دماء .. وبلا ضحايا. لكنك آثرت أن تعلن ذلك. وكان في المجلس نمام. وأنت تعرف أنه نمام .. وإذن.. فسوف ينقل ما حدث.. ليشيع .. ويذيع في

حـركة غـير مـباركـة تشـد إليهـا أطرافا أُخـر لا ناقـة لهم في المعركـة ولاجمل! .ثم تكون النتيجة أن تهدأ أنت. . لتلتهب المعركة من جديد في صدر صـاحبك المشتـوم . . وهكذا دواليك. . وإذنْ . . فهـدوؤك بعد أخذ ثأرك هو ذلك الهدوء الذي يسبق العاصفة!

٢ ـ ثم. . لقد أزجيت في سـماء أخيك من التهم سـجبًا داكنة . . وسوف يتاح للسامعين معرفةُ زيفها . . اليوم أو غدا.

أما قولك: هـٰذه هي الدَّفعة الأولىٰ . . وما خفي كان أعظم؟! فإنه يعبر عن وجهـة نظر ماكرة . . لا يملك صاحبهـا دليلاً قويًا . . ومن ثم . . يلجأ إلىٰ الإيهام في الاتهام تمويها. . حتىٰ يُغرق السامعين في ضباب من الشكوك . . وتذهب بهم الأوهام كل مذهب . . ويبقىٰ المـتهم معهم غارقـا في ضباب من ظـنون . . إن لم تُصب منه مقتـلا فإنهـا تترك في الأسماع دويًا. . دويا يوقظ غريمك الذي ينهض ليـدافع عن نفسه دفاعًا شاهدًا بخطئك الجـسيم . . إذا كان ذلك الغـريم عالمًا مثـلا. . لأنك قد توف بتصرفك نَهرَ عطائه لأمته ولدينه . . ليحـوِّل موهبته في عملية دفاع عن النفسِ . . تحرِم الأمـةَ من ثمرات أقلامهـا . .في حرب. .تكون أنت وقودَها . . لأنك أنت الذي أشعلتها! .

« **ب** »

ما يـزال حديثنا مـوصولاً عن خـسارة المغـتاب . . إلىٰ جانـب ما يحققه الصمت من فوائد .

٣ ـ المفـروض في المسلم أنه يكون نطقـه ذكرا . . ليـضمن لقـوله الصعـود إلىٰ السمـوات العلا . . فلا يصـعد إليـه (سبحـانه) إلا الكلم الطيب: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر: ١٠]

فإذا لم يطاوعه لسانه . . فليس له إلا الصمت . . يلوذ به من أكل لحم أخيه ميتًا . .

فإن أبيت إلا الفحش تطفئ به غيظ قلبك . . فعليك أن تسائل نفسك هل أصلحت بالغيبة عَيْب صاحبك؟ أم هل حققت بها مصلحة شرعية أو اجتماعية؟

لا هذه . . ولا تلك . . لقد تجاوزتَ الحد فقلت زائدًا . . بل فاحشًا من القول . . ومن ثم تصدمك القاعدة القائلة: كل شيءٍ ينتفعُ بفضله . . إلا الكلام . . فإنَّ فضلَه يضر . .

وكان على المسلم ـ قبل أن يتكلم ـ أن يدير لسانه في فمه سبع مرات . . وإذا كان مأموراً أن يقدّر لرِجْله قبل الخطو موضعها . . فما باله باللسان

وقد قالوا: صمت جيّد . . خير من حوار سيئ . . ومن صمت كثيراً . . سَمِع كثيراً . . ألاَ وإن الجبل الصامت لا تحركه العواصف . . بينما العشب . . يحركه أضعف ريح!

ومن أقوال الحكماء هنا:

قال الشعبي يوماً لرجل يكثر مجالسته ويطيل الصمت: ألا تتكلم؟ فقال: أصمُت . . فأسلم . . وأسْمعُ فأعلم.

إن حَظَّ الإنسان في أذنه . . له . . وحظَّه في لسانه لغيره!

والأصل في ذلك كلِّه قوله (ﷺ): «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

إن حَظَّ الإنسان في أذنه .. له .. وحظَّه في لسانه لغيره!

والأصل في ذلك كلِّه قوله (ﷺ): «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»

وقد مضىٰ الفكر الإسلامي في ضوء هٰذا الحديث الشريف .. يبحث عن مظاهر الخيرية في الصمت الوقور .. فقال المجربون: في الصمت سبعة آلاف خيْر.. وقد اجتمع ذلك في سبع كلمات. في كل منها ألف:

١ ـ فهو عبادة من غير عناء.

٢ ـ وزينة من غير حُليّ.

٣ ـ وهيبة من غير سلطان.

٤ ـ وحصن من غير حائط.

٥ ـ وفيه الاستغناء عن الاعتذار.

٦ ـ ثم هو راحة .. وستْر للعيوب.

وليت شعري .. هل علم المغتاب أنَّ ما أحسَّ به من راحة بعد الهجوم .. لايساوى شيئا إزاء هٰذه المكاسب..أو هٰذه المغانم؟!والتي أضاعها بالكلمة الطائشة!

وما أصدق ما قالوا: إذا كان النطق يقظة العقل .. فإن السكوت منامه فكن منصتًا واعيًا .. أو متكلمًا عالمًا.

حساب المستقبل:

وإذ يُحرِّم الإسلام الغيبة بحساب العقل .. فإنه يحرمها أيضا بحساب المستقبل: فتعويد اللسان علىٰ منطقٍ مّا .. حري أن يغري

الإنسان بتطبيقه عمليًا:

قال ابن جابر: ما رضَعْتُ عنْزًا قط. ولو قلتُ: «لأَرضعنّها». خِفْت أن يصير بي البلاء إلى أن أرضعها .. إن البلاء موكّل بالقوْل.

وإذن .. فالإسلام يحميك من مضاعفات الفحش .. بتحريم الغيبة .. وقبل أن تُخْصَم من حساب كرامتك .. بعد أن خُصِمت من حساب. أُخُوَّتك..!

حساب المنفعة:

وقد يكون في الرجل عيوب كثيرة .. لكنه يستطيع سترها بفضيلة واحدة هي: حفظ اللسان .. فضلا عن أن حفظ اللسان عنوانُ تمامِ العقل .. على حد قولهم: إذا تمّ العقل .. نقص الكلام.

وإذن: فمن مصلحتك الشخصية أن تُمْسك عليك لسانك .. ثم تُتيحَ لِعَقْلك فرصةَ التفكير المستنير الواصِل بك إلى ما يليق بك.

وسائل نفسك: لِمَ أغتاب أخي؟ .. وسوف تكون الإجابة في صالح الطرفين: فقد تَذْكُرُه.. بما فيك مثلُه .. فاشغل نفسك بإصلاح عيبك. وقد تذكره بما فيك أعظم منه. فأنت أولى باللوم منه..

وإن كنت تذكره بعيب عافاك الله منه .. فتلك نعمة .. وليس من شكر النعمة أن تلطّخ سمعة الآخرين... لكنَّ شكرَها أنْ تستغفر لهم وأن تحمَدَ الله الذي عافاك مما ابتلى به غيْرَك!.

قال الواثق لأحمدَ بن أبي داود: فلانٌ يقول فيك كذبا... فقال: الحمد لله الذي أَحْوَجَه إلى الكذب فيّ. ونزهنى عن الصدق فيه.

- جـ -

وإذا كنت تطلب الخير لنفسك حقًا .. فلا تغتب غيرك ـ لأنك

بالغيبة في الموقف الأضعف . . وإن ظننت أنك بالشتم حققت مغنما:

قيل لأحد العلماء: إن فلانا قد اغتابك . . فدافَعْنَا عنك . . ورحمناك . . فقال لهم: بل إياه فارحموا . .

لماذا؟ لأنه بالغيبة يُضيف من حسناته إلى الآخرين ممن لمزهم . . بقدر ما يضاف إليه من سيئاتهم . . قصاصًا.

بل إن هذا العالم نفسه لو سمع بأذنه مَنْ يشتمه لَمَا ردَّ عليه . . ولأنه يعتبر الرد عليه تقديرا له . . ضنًّا بحسناته أن تُضاف إليه.

قال أحدهم لعالم: بلغنى أنك اغتبتني . . فقال: لم يصلْ تقديري لك أن أُوثِرَك بحسناتي . .

ومن هنا كان من أخلاق العابدين: لو كنتُ مغتابًا أحدًا . . لاغتبت والديَّ؛ لأنهما أحق الناس بحسناتي.

ويظل باب التوبة مفتوحا:

وباب التوبة مفتوح لمن أراد الرجوع: فإذا اغتبت أخاك . . فلا تُخْبِره حتى لا يتغير قلبه . . وعليك أن تستغفر له . . في كل مجلس مادحًا إياه بما فيه: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤] ومن جلس في مجلس غيبة . . فلا يكفي أن يُنكر بقلبه . . وعليه أولاً: أن يترك المجلس، وثانيا: إشعارُ الحاضرين بأنه رافض لِمَا قيل . . فإنْ فعلتها وجلست لكُنْتَ متناقضا مع نفسك . . نفسك التي تَحملُك على أن تستدبر كل شيء تكرهه . . وعليك أن تُثبت عمليًا أنك كارِه لمجلس . . يأكل فيه أخ لحم أخيه ميتا.

ومما فرض عليك يوما : أن تنظر إلى جيفة قذرة . . وأن تشم ريحها . .

بل ربما فرض عليك أن تلمسها أو أن تتناول بعضها مضطراً . .

أما أن تحب ذلك . . أن تحب أكل الميتة . .

ولو كانت لحم أخيك الميت . .

أما أن تحبها . . تشتاق إليها . . تقبل عليها . . أما أن يكون ذلك . . فأنت لست من ديننا لست بإنسان . .

أجل . . لست بإنسان يا أيها المغتاب الذي: تحب . . تحب أن تأكل لحم أخيك ميتًا!!

ومن التطبيقات:

كان التابعي «إبراهيم النَخَعي» يمسك بيد صاحب له . . فاغتاب هذا الصاحب رجلاً . . . فلما دنا من المسجد نَزَع يده من يده وقال له: اذهب فتوضأ!!

وكان يكفي التابعيّ الجليلَ أن ينزع يده . . وبهدوء . . معتذرا لصاحبه المغتاب . . لكنه يجعل من الموقف درسًا بليغًا له . . ولكل مغتاب من بعده . . حين دَمَغَه بنقض وضوئه بمحاولته لمزَ أخيه المسلم . .

ولكي يتم تصورُنا لِمَنْهج الرجل نذكر ما قاله العلماء عنه: إنه مع شدته رحمه الله (تعالى) . . لم يكن يرى مقاطعة المذنب واعتزاله . .

وقد ذكروا أن صاحب ذنب تركه أصحابُه فقال لهم: عِظُوه . . ولا تدَعُوه

وهذه الغضبة المضرية من التابعي الجليل لها ما يسوغها: فهي في حقيقتها مواجهة لمجموعة من الرذائل تجيء الغيبة تعبيرا عنها:

فالمغتاب: ظالم . . لأنه يذكر المساوئ . . . ويتجاهل المحاسن . .

والمستمع الساكت.. يمنعه الخجل.. والخجل مذموم.. لأنه يمهد بالسكوت لسقوط الآخرين من قمةٍ هم أحق بها وأهلها. ولعلها في نفس الوقت عزاء لكل ذى مروءة يقع الناس فيه ظلمًا.. فإذا كان ذلك المشتوم عالمًا .. فما أجدره بالصبر الجميل .. فإن لحم العلماء في هذا الزمان شهيّ.. كلحم العصفور.. إذا أُكِل مرة .. فلن يصبر الآكل عنه .. ولكن الموعد غدا... وفي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.. سيأخذ هذا العالم كتابه بيمينه .. فيرى حسناتٍ لم يفعلها .. فإذا تساءل: من أين؟ قيل له: بما اغتابك الناس .. ونمُّوا

أناس: أمِنَّاهم فنمُّوا حديثنا فلما كتمنا السر عنهم ...تقولوا

وليتنا .. نحرص على كمال مجالسنا كما نحرص على جمال ملابسنا.. تلك المجالس التي هي أمانة في أعناقنا .. وينبغى أن نتهادى فيها الكلم الطيب... وعندئذ فما أجمل سرورَنا بل وما أكملَه:

قيل لعمر (ﷺ): ما السرور؟ قال: سَيْرى في سبيل الله..ووضعُ جبهتى على الأرض .. لله.. ومجالستي رجالا ينتقون أطايب الحديث . كما ينتقون أطايب الثمر!!

« د »

منهج في التخلص من الغيبة

شهوة الكلام غلابة .. وقد يستغنى الإنسان عن حَظِّه في الطعام .. لكنه لا يستغني عن شهوته إلى الكلام..

وأظهر ما ترى الغيبة في ساحة العلماء! .. ذلك بأن التنافس بينهم شديدٌ إلى الحد الذي يغري بالتعريض بالآخرين .. تصريحًا أو تلميحًا!

وإذا كان العلماء من هذه الناحية بَشراً .. فإنهم لم يستسلموا لمطالب البشرية فيهم .. فتواصلت جهودهم للوصول إلى السبيل القاصد .. الواصل بهم بعيداً عن هذه الرذيلة الوبيلة. وكانت خشية الله (تعالى) .. واستحضارُ عظمته. واستشعارُ عذابه قاعدتَهم التي انطلقوا منها.. ذلك بأن للخشية آثارَها في عالم النفس . وعالم الواقع :

فهي من الناحية النفسية تزود المسلم بالضمير الحيّ .. الشاعر .. الحساس.. ثم هي تمنحه شجاعة أدبية في مواجهة الخَلْق .. لأن من استشعر عظمة الخالق .. هان عليه المخلوق!

ومن آثار ذلك .. مواجهةُ الغريم بعَيبه صراحَةً . بدَل فحيح الأفاعي في غيبة الرقباء..

ومن آثاره أيضًا: التزام الصمت .. ما أمكن .. ثم الصدقُ إن كان هناك داعٍ للكلام .. يقول ابن المبارك:

الصمت أزين للفتى ... من منْطق في غير حينهْ
والصدق أجمل بالفتى ... في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره ... سِمةٌ تلوح على جبينه



الحل العملي

ومن الناحية العملية كان لهم مَنْهجهم الصارم الحاسم:

قرر عبد الله بن وهب العالم المصري أن يصوم يومًا .. كلما اغتاب أحدًا.. وبقي على وفائه بهذا النذر .. إلى أن أرهقه الصيام.. مع بقاء العلة كما هي..

وأحس العالم الجليل أن جُرعة الدواء غير كافية.. فقرر أن يستعمل دواء أجدى . من شأنه أن يَفطمَ النفس عن شهوتها الغالبة..

ومن ثم قرر أنه كلما اغتاب أحدا .. تصدق على مسكين.. ولقد وضع نفسه أمام الاختيار الصعب... فإذا كانت أُحْضِرت الشح .. فأحبَّت المال حبا جما... وإذا كانت كذلك تحب الغيبة والتعريضَ بالآخرين فعليها أن تَحلُ المعادلة الصعبة.. ولم تتردد نفسه في اختيار الكف عن الغيبة.. ضنًا بالمال الأثير لديها.. ونجح الرجل في الامتحان!

ألا ليت المسلم يقيم في نفسه هذه المحكمة المنعقدة في كيانه دائمًا .. حتى لايتورط فيما تأباه كرامة الإنسان .. من أكل لحم أخيه ميتًا..

ولو قد فعل .. لما بقي فينا.. مغتاب.. ولا نمام.. ولا قتات .. ولن ينقطع بانقطاع الغيبة مورد من موارد الرزق .. رزق المساكين.. لأن الدرهم الذي كنا نعطيه .. عقابا .. سوف نعْطيه بعد ذلك مضاعفا.. شكرا لله (تعالى) أنْ رزقنا نعمة التوفيق .. التوفيق إلى كف اللسان عن الولوغ في عرض الإنسان..

العفو .. سيد الأخلاق

وإذ يحاول المغتاب إصلاح ما أفسد .. فما هو واجب المجروح الغائب إذا ما تكفل نمام بإبلاغه بما قيل عنه؟

لا شك أنه سيغضب لكرامته .. وهذا هو الواقع.. ومن الحكمة أن يضع طاقة الغضب تحت إشراف العقل .. ليتحوّل الأمر في النهاية إلى حكمة تسيطر على الموقف .. بفضيلة الحلم .. وهو الكاسب على أي حال:

قال الإمام علي (عليه السلام): حلمك على السفيه .. يزيد أنصارَك عليه..

وهكذا كان الحلماء.. قلوبهم تَغْلى من الظلم الواقع ولكنّ أمرَهم كما قيل:

ولربما ابتسم الكريم من الأذى وفؤاده من حره يتأوه

وإلا فإن إطلاق طاقة الغضب قد يصيِّر المظلوم ظالمًا!!.. وبئس الزادُ إلى المعاد، ظلُم العباد.. وأليق بالمظلوم هنا أن يعفو .. ليتبوأ بالعفو مكانًا عليا .

ذلك بأنك لو اعتديت .. قيل لك: لو صبرت!.. وأنبل منه أن تصبرَ ليقال لك: لو عفوت!!

فلنبدأ رحلة العودة إلى الله: متخلصين من الداء .. من الغيبة.. مستعينين بالدواء .. بالاستغفار... حتى نصل بعون الله إلى الشفاء..

إلىٰ توبة نصوح..

يقبلها (تعالىٰ) عن عباده ويعفو عن السيئات

- هـ -

قال محمد بن كعب القرظي: إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل فيه ثلاث خصال:

فقهًا في الدين: يحمى نفسه من الجهل ويحمي غيره.. وزهادةً في الدنيا .. وبَصيرًا بعيوب نفسه

ويالها من سمات رأيتُها في هٰذا الفلاح البسيط .. فكان من آثارها أن كان في الناس دائمًا سمْحًا .. يعفو عمن ظلمه ودائمًا.. ولقد تعلمت العفو عمليًا.. وعلىٰ الطبيعة من ذلك الفلاح الطيب في قريتي لقد عشت معه أزمته مع زميله الذي قلّب له الأمور .. وفي القرية سماعُون له.. وتلك هي المصيبة الأنكىٰ!

وذات صباح .. كنت أُمسك بالقلم لأكتب حديثًا عن فضيلة العفو .. وفجأة رأيت الظالم يأتي معتذرا .. ويُلقي الفلاحُ الطيب فأسَهَ .. مقبلا عليه بقلب مفتوح .. وكأنما نَبَتَ فيه ألف ذُراع .. يحتضن بها صاحبه بل يحتضن الدنيا كلها.. في شخص صديقه العائد .. لقد تجاوز حدود ذاته .. فأحب حتىٰ ظالمه .. وألقيت بالقلم اكتفاء بهٰذا الدرس العملى .. الذي لا يؤلف العفو أبحاثًا وكتبًا .. وإنما يصنعه بيديه صنعًا!

وسقىٰ الله أيامًا .. كنا فيها سعداء بأميين .. لا يعلمون الكتاب .. لكنهم يعلمون .. بل يعلموننا هٰذه الآداب..

لقد ذهبت هٰذه القمم.. فاهتزت من بعدهم .. تلك القيم.

مجالسنا
والوقت الضائع

قال الحسن البصرى (رحمه الله): ابن آدم: إنما أنت أيام .. كلما ذهب يوم .. ذهب بعضك! وما أشد غفلتنا عن عُمْرنا هذا الذي يتلفت من بين أيدينا .. ليكون من بعدُ شاهدا علينا..

وما أرخصَ الوقت الضائع في مجالسَ نُسوِّد صفحاتها بلمز الآخرين.. على نحو يدمغُنا بالتقصير في فهم دروس القرآن العظيم .. والتي منها أهمية الوقت في حياة المسلم.

ومما أذكر لأستاذنا الشيخ على الطنطاوي ـ وأنا هنا أنقل من الذاكرة، قال: إذا كنا نحب الحياة؛ فلنحافظ على مادة هذه الحياة وهو: الوقت ... يقول (سبحانه): ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

حين يمضى يوم .. فإنه يَسقُط من عمرك... لأنه بعضك .. ينفصل عنك.. ثم لا يعود ..

ولكن الفارغين يبعثرون ثروة الوقت من الدقائق فيما لا يفيد.. بل فيما يضرهم .. وإذا هم من المبذِّرين: الذين يصير يومهم في غيبوبة اللهو ساعة..

وتصير ساعتهم .. دقيقة..

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات: فإنهم بالحكمة: تصير ساعتهم

يومًا.. ودقيقتهم ساعة..! لقد عمروا أيامهم بصالح العمل: تركوا الأنانية .. إلى الإيثار.. وتركوا لغو الحديث .. إلى ذكر الله (تعالى).

ولم يقف بهم إيمانهم عند هذا الحد، ولكنهم رغبوا في أن يكون غيرهم كذلك .. إشاعة لجو الطهر.. وذلك قوله (تعالى): ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾.

ولأن شُقة الحق بعيدة .. ومشقته شديدة، فلا بد من التعاون على مراحل الطريق الطويل: وذلك قوله (تعالى) :﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وهكذا تصير أيام ـ المؤمنين ـ بالعمل الصالح أعيادًا موصولة .. بينما طلاب الدنيا الوالغون في حمأة اللذاذات العاجلة من متعتهم الزائفة في حيرة .. وفي خسران .. بل في شقاء .. رغم ما يتظاهرون به من سرور .. وهو ما أشار إليه بَشار بن برد في قوله:

وما في الأرض أشقى من محب   وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حين   مخافة فُرقة أو لاشْتياق
ويبكي إن نأوا حذرًا عليهم   ويبكي إن دنَوْا حذر الفراق
وتسخن عينه عند التداني   وتسخن عينه عند الفراق!

ألا إن الغيبة صورة كابية من صور الظلم، وسواء كان في أخيك ما اتهمته به أم كان منه بريئا .. فأنت ظالم في الحادين... وما أنت إلا ذلك المعتدي الذي رأى ثوبًا جديدًا .. زاهيَ الألوان فَرَشَّه بماء النار، فذهبُ رواؤه وبهاؤه.

وعزاء المظلوم هنا: أن مَلَكا من السماء ينزل ليدافع عنه .. مكذِّبا مَنْ ادعى الكذب .. ثم إن هذا الذي يتهمك بالباطل:

إما أن يكون عالمًا بِكَذِبِه .. فهو مريض .. فالعفو دواؤه.

وإلا .. فهو مجرم. وعلى المجتمع أن يصفي حسابه معه. بمقاطعته أدبيًا.. إلى أن يعود من رحلته مع شيطانه .. الذي سحبه كالسائمة إلى الغيبة التي هي كما قيل. مرعى اللئام... اللئام .. الذين هم من الخذلان في القاع بما قدموا لأنفسهم .. حين أهدَوْا بالغِيبة أحسن ما عندهم وهو حسناتُهم .. إلى من يكرهون وهم الذين اغتابوهم فظلموا بذلك أنفسهم بحرمانها من رصيدها .. قبل أن يظلموا الآخرين.

-٩-

عن أنس (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**لما عرج بى .. مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت:** من **هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ويقعون في أعراضهم**»[(١)].

إن الخوض في أعراض الغائبين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم. محاولة لإنهاء وجود الإنسان الأدبي .. لا تقل بشاعة عن محاولة الاعتداء على وجوده المادي بالسلاح!

وإذا كان من جزاء المغتاب ذلك المصير المهين حين يمزق بأظافر من نحاس خلايا وجهه وصدره .. فإن للشريك التي تتم به الجريمة مثل ذلك .. وهو المستمع. أقصد: المستمتع!!. ذلك بأنه بالسكوت والرضا. يمهد لاتساع الخرق.

ثم هو بالإنصات يتخلى عن دوره في الدفاع عن أخيه الغائب على ما يقول (ﷺ): «**من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم**

---
(١) رواه أبو داود.

القيامة»(١).

إننا نركز دائما على من يباشر الغيبة . . ثم ننسى دور المستمع في التمكين لها . . وهما شركاء فيها مع سبق الإصرار والترصد!

قال بعض الصالحين: أخشى أن يقول المسلم يومًا: لا إله إلا الله . . أو سبحان الله . . أخشى أن يكون من أهل النار؟! فقيل له: وكيف؟

قال: يغتاب الرجل بين يديه فيقول:

لا إله إلا الله . . سبحان الله . . والمطلوب منه أن يقول للمغتاب: اتق الله!

ولكنها المراوغة المنبثقة عن حقد مقيم . . يمارس صاحبه العبادة أشكالا . . ثم لا يحب أن يرى في الوجود جمالاً!

إن هوان الوجود الإنسانى إلى هذا الحد . . يذكرنا بنعمة جليلة علينا هي أن الله (تعالى) هو الذي خلق . . ورزق . . وشرع لنا من الدين ما وصى به من قبلنا . . ولو وكل تنظيم أمور العباد إلى العباد . . لاختل نظام الدنيا . . واحتل الشيطان أرض النفوس!

ويالها من رحمة عظمى تسجل الفرق الهائل بلا حدود . بين المخلوق والخالق . . . إن الخالق (سبحانه) بالتوبة . . يبدل سيئاتنا حسنات . . . بينما المخلوق ـ بالحقد ـ يبدل حسناتنا سيئات!

والذين يهجمون على الشخصيات الناجحة بأسلحتهم الفتاكة وبظهر الغيب إنما يطلقون النار على أنفسهم أولاً . . لأن الإنسان بنفسه وبغيره يعيش . . فلو سقط الأحياء من حوله . . سيجد نفسه على الطريق

(١) رياض الصالحين ص ٤١٠ .

وحده!

ويا له من زمان غلا فيه لحم الحيوان .. ورخص لحم الإنسان .. أفلا يساوى الوجود الإنساني حتى هذه الشجرة التي وجدت من البشر اليوم من يدافع عنها.

في دولة أجنبية لا تقطع شجرة من حديقة إلا بالشروط الآتية:

١ ـ مشاورة أهل الحي الذين اعتادوا رؤيتها .. وكانت خيطا في نسيج حياتهم.

٢ ـ الاتصال بالجهات الرسمية ليتأكد مندوبها من ضرورة قطع الشجرة.

٣ ـ أن يتعهد قاطعها بزرع شجرة مكانها.

وفي أمريكا: رش مجنون مبيدا حشريا على شجرة عمرها خمسمائة سنة. وهرع العلماء إلى الشجرة لإنقاذها..

فمن للإنسان الآن؟ من يحميه من حماة الشجرة أن تقطع .. ولا يحمون وجود الإنسان أن يقطَّع؟! لـه الله (تعالى) الذين صان عرضه .. وحفظ كرامته .. وأرصد للمعتدين عليها ذلك الجزاء الرادع .. فهل من مدكر؟



النميمة بين الاسترسال .. والاستئصال

عن حذيفة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «**لا يدخل الجنة نمام**» [متفق عليه]. وفي رواية: «**لا يدخل الجنة قتات**».

تمهيد:

من أمراضنا الاجتماعية الخطيرة: النميمة .. والتي يتوعد الحديث الشريف صاحبها بالحرمان من دخول الجنة .. وفي محاولتنا تشخيص العلة .. ووصف الدواء.

نتساءل: من هو النمام؟ ومتى يصير قتاتا؟ وما مدى خطورة هذه الرذيلة؟ وكيف تتخلق جرثومتها؟ وإلى أى حد نتحمل مسئوليتها؟ وما هو منهج الإسلام المنقذ من ويلاتها؟

النمام .. والقتات

جاء في الترغيب والترغيب: (النمام: الذين يكون مع جماعة يتحدثون حديثا فينم عليهم.

والقتات: الذي يتسمع عليهم ـ وهم لا يعلمون ـ ثم ينم عليهم)

وأصل النميمة: (الهمس . والحركة الخفية . ومنه: أسكت الله نأمته. أي حسه)[1].

والقت: الكذب المهيأ

وقت الشيء يقُته قتا: هيأه وجمعه .. قليلاً .. قليلاً .

(١) المصباح المنير .

والرجل القتات: هو الذي يستمع أحاديث الناس . ثم يخبر أعداءهم[1] .

وفي بصائر ذوي التمييز: (النم:التوريش: أي التحريش والإغراء، ورفع الحديث إشاعةً له وإفسادًا . ونمنم الشيء: زخرفه ونقشه).

وتتضح صورة النمام من خلال هذه النقول: فهو رجل مولع بنقل الأحاديث التي يسمعها في مجالس يحضرها بل هو يتسمعها . . أى يتكلف سماعها . . ولم تصل إليه تلقائيًا . . فهو في منطق القانون: مجرم مع سبق الترصد والإصرار.

وتتم القصة هكذا: كلمة يقولها قائل . . فينقلها ناقل . . فيغترّ بها جاهل!

والناقل هنا يدرك خطورة ما يفعل . . بدليل أنه يتحرك سرا، حتى لا ينكشف أمره . . فتفسد خطته. . . إنه مجرم مع الترصد، وسبق الإصرار كما قلنا.

ولأن الحركة الخبيثة من قبل النمام لا تنطلق من قاعدة إنسانية . . ولا تستهدف مصلحة . . بل إنها تتحرى الوقيعة . . فإنه يحاول زخرفة ما ينقله . . وتلوينه . . ثم يمحو ما يشاء ويثبت . على نحو يتحقق به غرضه الخبيث . . بحيث ينطلي على المنقول إليه. . . فيشعل الموقف نارًا .

من هو القتات:

و«القت» طور متأخر من أطوار النميمة . . تبلغ به الذروة في إرادة الفساد في الأرض. وربما جاز لنا أن نقول: إن النمام هاو . والقتات

(١) لسان العرب.

محترف.

فالقتات: ليس عضوا في المجلس .. ولكنه يرصده من قريب .. متسمعًا. راجعًا بما يسمعه إلى «غرفة العمليات» ليصوغ منه حديثًا آخر. كاذبًا .. مهيأ .. معدًا للانطلاق كالقذيفة.. على أن يكون ذلك على مهل .. رويدا .. رويدا.

ثم يبلغ الإفساد مداه حين يقع اختياره على الأعداء بالذات، ليخبرهم بما قال خصومهم في حقهم ليفجر الموقف المتوتر والقابل للاشتعال بحكم العداوة القائمة..

فإذا تصورنا أنه رجل «مزور» بَانَ لنا كيف يختفي من وراء هذا التزوير ليمارس نشاطه دون أن يفطن له أحد..

من أجل ذلك أجاب «حذيفة» (رضي الله عنه): «لا يدخل الجنة قتات» لما قيل له: معنا رجل في المجلس يرفع الأخبار للحاكم. لقد اختار «قتات» بالذات. لخطورة الآثار المترتبة على إعلام الحاكم بما قيل. فهو قادر على التنكيل بخصومه تنكيلا بحكم السلطة المخولة له.

من صور المكر:

ومن صور التخفي والتستر .. مما يلجأ إليه بعض الماكرين من النمامين .. عندما يتطوع بالتحدث عما سمع في مجلس ما .. وأمام رجل معروف بنقل الحديث.. وطبيعي أنه يضمن بذلك وصول حديثه عن طريق هذا الرجل المعروف بذلك المرض .. أى بطريق غير مباشر.

وهكذا يختبئ المجرم الحقيقي وراء الستار .. بعد أن ينفث نفثته . وقد يطول الوقت .. قبل أن يضبط متلبسا بجريمته .. أو جريرته.

خطورة النميمة:

ومن هنا تنبع خطورة القتات . أو النمام:

وقد قالوا: الذي يعمله في ساعة. . لا يعمله الساحر في شهر[١].

وقد سجل الشعر بعض هذه المخاطر . بمثل قول الشاعر:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحًا وما سمعوا من طيب دفنوا

ومعنى ذلك أن تلوث البيئة الاجتماعية منوط بهم . من حيث إذاعتهم للشر. ودفنهم لصور الخير . ونسوا أن من سمع بفاحشة فأفشاها . فهو كالذي أتاها . . فكيف بمن يتصيد الشائعات . ثم يقوم بتصديرها كأنها الحقائق؟

دور الأسرة:

ولقد كان للأسرة إدراكها لخطورة النميمة . فتوالت تحذيرات الآباء للأبناء منها . قال سليمان لولده: يا بنى: إياك والنميمة. فإنها أحد من السيف.

وقالت أعرابية لولدها: عليك بحفظ السر. . . وإياك والنميمة: فإنها لا تترك مودة إلا أفسدتها. ولا ضغينة إلا أوقدتها. . . وإذا تحذر الأم ولدها . . فإنها تحاول أن تقيه ابتداء من شررها، وذلك بحفظ السر الذي هو أساس الداء . . لأنه بضاعة النمام التي يروجها في أسواق العداوة.

وكيف لا تكون النميمة على هذا النحو من الخطورة وهي التي تقطع كل ما أمر الله به أن يوصل .

قال أبو حاتم: (تهتك الأستار ، وتفشي الأسرار ، وتورث

(١) راجع روضة العقلاء لابن حبان.

الضغائن، وترفع المودة ، وتجدد العداوة ، وتبـدد الجماع، وتهيج الحقد، وتزيد الصد).

وماذا يبقى من روح التناصر الضرورية للأمة في مجتمع هتكت فيه أستاره.. وأذيعت أسراره؟ وكيف ترقى أمة وفيها ذلك «الطابور الخامس» الذي يئد الخير في مهده . ثم يصفق للشر ليستعلي ويتحكم؟

النميمة على لسان الشعراء:

كان للشعر دوره في التنديد بالنمامين:

قال أحدهم:

من نم في الناس لم تؤمن عواقبه ... على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

كالسيل بالليل لا يدري به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه

فالويل للعهد منه كيف ينقضه ... والويل للود منه كيف يفنيه

بل إن الأمر لا يقتصر على نقض العهد فيما ائتمن على كتمانه .. ولكنه يحاول اختلاق الأحاديث ليرمي بها الأبرياء .. فإذا علم خيراً فإن طبعه الخبيث لا يطاوعه على نشره .. لأن من شأن ذلك إشاعة جو من الطهر .. وهو بخبثه غير مهيأ للعيش في المجتمع الطهور .. والذي يحاول تلطيخه بما يخترع من أكاذيب:

يمشون في الناس يبغون العيوب لمن ... لا عيب فيه لكي يستشري العطب

إن يعملوا الخير يخفوه وإن عملوا ... شرا أذاعوه وإن لم يعلموا كذبوا

لقد صار البهتان عاطفتهم السائدة .. وقد يموت فيهم الضمير فلا يندم يومًا على ما فعل .. بل قد يندم على فلتة لسانه الذي تحرك يومًا بالخير:

يقول الشاعر:

تمشيت فينا بالنميم وإنما ... تفرق بين الأصفياء النمائم
ومازلت منسوبا إلى كل آفة ... ومازال منسوبًا إليك الملائم
لأنك لم تندم لشر فعلته ... وما تأت من خير فإنك نادم!.

وصدق العليم الخبير حيث يقول: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [ن: ١٠ ـ ١٢].



منهج الإسلام في الإصلاح

من أهم أطراف النزاع في جريمة النميـمة؟ وما هو منهج الإسلامى في تلافي آثارها؟

أما أطراف النزاع فهم:

أ ـ منقول عنه.

ب ـ ثم الناقل.

جـ ـ ثم المنقول إليه.

د ـ مجلس تتم المعصية على مرأى منه ومسمع.

الحل الإسلامي:

نقرأ في ذلك قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

(روى أنه (ﷺ) بعث الوليـد بن عقـبة لـيجـمع الصدقـة من بني المصطلق ـ وكان بينه وبينهم إحنة ـ فلمـا سمعوا به استقبلوه. فـحسبهم مقـاتليه. فرجع وقال لرسـول الله (ﷺ): قد ارتدوا ومنعوا الزكـاة. فهم بقتالهم. فنزلت

وقـيل: بعث إليهم خـالد بن الوليـد، فوجـدهم منادين بالصـلاة متهجدين. فسلموا إليه الصدقات. فرجع)[1].

(١) راجع تفسير البيضاوي.

ونتلمس ملامح المنهج الإسلامي في الإصلاح:

١ ـ كانت هناك عداوة قديمة بين الوليد وبني المصطلق .. وكان لها بالتالي دورها في الحكم المتسرع.

٢ـ أدانته الآية الكريمة دامغة بالفسق كل من سلك هذا المسلك المسارع إلى الاتهام.

٣ ـ تحميل المنقول إليه مسئولية تصديق الخبر بدون بينة.

٤ـ ضرورة التثبيت حماية لكرامة الناس الغائبين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم.

وعلى هذا الأساس القرآني اتجه الفكر الإسلامي إلى الإصلاح بوسائل منها:

بيان الجذور النفسية والأخلاقية التي تفسر دواعي النميمة... ثم .. توضيح مسئولية أطراف القضية جميعا .. ليكون التحذير عاما .. وليس خاصا بالناقل وحده كما يظن بعض الناس اليوم، حين يبرزون دور الناقل النمام في إفساد ذات البين .. متجاهلين سكوت بقية الأطراف الذين هيأوا للنمام طريقه .. لينفذ جريمته.

أما عن أسباب النميمة: تعود النميمة إلى أسبابها الحاملة عليها ومنها:

أ ـ ضعف الوازع الديني..

ب ـ التنافس بين الأقران والذي يتطور بالعناد إلى حسد مدمر.

جـ ـ عدم إدراك النمام حجم جريمته وما يترتب عليها من آثار. ذلك بأن النميمة داء خفي يسري كالسم لا ترى آثاره بالعين المجردة.

د ـ خلو المجلس من شجاع يردع النمام قبل أن يستفحل خطره.

هـ ـ عدم إدراك المسلم لمسئوليته المباشرة في الدفاع عن عرض أخيه الغائب.. وأن إهمال ذلك يعرضه شخصيا لنفس الموقف الذي سيخذل فيه ولا يجد له نصيراً. وعجيب أمر الناس: لو رأوا من يسرق «جنيها» من أخيهم .. قبضوا عليه.. ولكن لو سرق عرضه .. فإنهم يسكتون .. وربما كان السكوت منهم رغبة في الاستماع .. أو في الاستمتاع!

و ـ ومن وراء ذلك كله: كيد الشيطان الذي لا يمل من التحريش بين المسلمين لتقر عينه بتمزيق وحدتهم . وجعل غزلهم من بعد قوة أنكاثًا.

ز ـ ومن أسباب النميمة أيضًا .. استرسال المنقول إليه في الاستماع .. فيغرى النمام بالمزيد.

ح ـ استهتار المسلم وعدم احتفاظه بأسراره التي يبوح بها ومن ثم تستغل ضده.

أما عموم المسئولية:

لما كانت المسئولية مشتركة .. فمن العدل أن يتحمل الأطراف جميعا نتائجها.. وهذا ما فعله الإسلام الذي لم يكتف بمجرد الاتهام .. وإنما شخص المشكلة واضعًا في نفس الوقت أسباب الخروج منها:

* أما بالنسبة للمنقول عنه: فهو مأمور بحفظ أسراره . حذر انتشارها.

عن أبى هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «**استعينوا على الحوائج بكتمان السر. فإن لكل نعمة حاسدا**»[1].

(١) ابن حبان.

وقد قيل: إذا بحت بسرك للرياح . . فلا تلمها إذا نقلته إلى الأشجار! . . وأنت الملوم إذن، على حد قول الشاعر:

تبوح بسرك ضيقا به　　وتبغي لسرك من يكتم
وكتمانك السر ممن تخاف　　ومن لا تخافنه أحزم
إذا ذاع سرك من مخبر　　فأنت وإن لمته ألوم

وإلى هذا المعنى أشار الشاعر:

إذا ضاق صدر المرء عن بعض سره　　فألقاه في صدري فصدري أضيق
ومن لامني في أن أضيع سره　　وضيعه قبلي فذو السر أخرق

أما بالنسبة للناقل. . وهو النمام: فقد رهبهُ الإسلام إرادة فطمه عن رذيلته:

يقول (ﷺ): «.. ومن استمع إلى حديث قوم له هم كارهون . صب في أذنيه الآنك يوم القيامة» والآنك: الرصاص المذاب.

وإذ يحذر (ﷺ) من التصنت . ومن نقل الحديث على فرض صحته . فكم يكون الجزاء لو اختلق الحديث اختلافا؟

قال (ﷺ): «ليس مني ذو حسد، ولا نميمة، ولا كهانة، ولا أنا منه» . ثم تلا قوله (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وفي التحذير من هذا المسلك المعيب نقرأ قوله (تعالى): ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [ن: ١١، ١٢].

لقد صار قلب النمام إطلالاً ينعق فيها البوم ولا يرف فيه ظل للخير. . بل إنه واقف بالمرصاد حتى لا يبسط الخير جناحه. . بل هو

«مناع» للخير يبذل كل جهده حتى لا يقترب من ساحة المجتمع . .

وقد تأملت حال الناس فوجدت تسعة أعشار الخصومات بينهم راجعة في أسبابها إلى رجل واحد . . نفث بينهم . . فكان الفراق . . ثم الشقاق . . ثم الدم المراق!



أسوة في حفظ اللسان

ذهب الصوفي «سهل بن عبد الله» لزيارة أبي داود الفقيه.

فقال له سهل: لي إليك حاجة . قال: وما هي؟

قال سهل: لا أذكرها حتى تعد بأن تقضيها. إذا أمكنك الله (تعالى).

قال أبو داود: إن شاء الله (تعالى).

قال سهل: إني أرى أن أطهر لسان هو الذي حجبه صاحبه عن اللغو . وشغله بكتاب الله . وحديث رسول الله (ﷺ) . وهذا اللسان هو لسانك . . وحاجتيهي: أن تسمح لي بتقبيل هذا اللسان . الذي أكرمه الله وهداه إلى حفظ السنة المطهرة، بالرواية الصادقة.

ووافق أبو داود . ومكن صاحبه الصالح من تقبيل لسانه.

قاطع الطريق:

وإذا كان للمغتاب من عذر أن يشتم صاحبه في غيبته أحيانا . . شتمًا قد يشفي صدره ليحسن من بعد التعامل معه . . فما للنمام ونقل الكلمة بطريقته الخاصة فيقطع على المغتاب التائب طريق العودة إلى الصفاء القديم ما صاحبه؟

وما أكثر الذين يتعرضون للظلم يقع عليهم من غيرهم . . ومن حقهم أن يشتكوا يوما شفاء لغيظ مكتوم. . لكن قطاع الطريق: لا هم يساعدونهم في رفع الظلم الواقع . . ولا يعطونهم الحق في أن يتألموا

!!وهـذا الصنف من الناس يبلغ من الشر مداه.

قــال (ﷺ): «**شرار عباد الله: المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب**»(١).

وإذا عـزل النمام هكذا في الدنيا فلم يكن له شـرف الانتماء إلى رسول الله (ﷺ) ولا إلى أمـته.. فإن عـذابه مستمر: في القبر.. وفي الآخرة.. أما في القبر: عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال:

«أن رسول الله (ﷺ). مـر بقبرين فقـال:«**إنهما يعذبان. ومـا يعذبان في كبير. بلى إنه كبير، أما أحدهما. فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستتر من بوله**» (٢).

والحديث الشـريف يشير إلى تساهل بعض الناس في تنـاول هـذه الرذيلة. والتي تجري على ألسنتهم دون إحساس بآثارها المرة، مؤكداً أنها عكس ما يظنون خطر عظيم.. لا يكاد مدمنها يموت، حتى تبدأ رحلة العذاب.. الذي سوف يكون تمهيداً لعذاب أكبر وأطول:

«**إن النميمة والحقد... لا يجتمعان في قلب مسلم**»(٣).

وإلى جانب هـذه التحذيرات.. فـقد كان له (ﷺ) موقف عملي يتصـدى لنوازع الشر.. حتى لا تبرز إلى الوجـود ليظل محتفظا بـحبه لأصحابه دائمًا: وأيضًا تعليمًـا لأمته، عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: قـال رسـول الله (ﷺ): «**لا يبلغني أحـد من أصحابي عن أحـد شيئاً. فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**» (٤).

---

(١) رواه أحمد.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الطبراني
(٤) رواه الترمذي وأبو داود.

وفي ضوء هـذا الحـديث ينبغي أن يحاسب الناقل نفسه. . بل عليه أن يناقشها الحساب. . . لقد كان أمامه عدة اختيارات:

أ ـ أن يدافع عن صاحبه المشتوم في المجلس . . وتنتهي مهمته.

ب ـ أو على الأقل: يغادر الجلسة مظهرا غضبه ورفضه لما قيل؛ مبرزًا ما يعلمه عن المشتوم من أخلاق فاضلة تنفي ما يقال في حقه ، أو على الأقل تخفف اللوم عنه.

جـ ـ أن ينقل الحديث كما سمعه. . .

د ـ أو يتزيد فيه مكرًا وخداعًا. .

وإذن. . فلماذا تخلى عن دوره كصديق حميم . . ينصر أخاه بظهر الغيب . . واختار أسوأ الاحتمالات . . بهـذه الوقيعة المبيتة؟

إن اختيار النميمة حينئذ هبوط إلى أسفل . . فلا أنت بالذي دافع عن صاحبه. . ولا أنت بالذي كتم السر حفاظا على ود قد يعود بين الاثنين . . بشرط أن تبتعد أنت عنهما!!

أما بالنسبة للمنقول إليه:

فهناك حقيقتان ينبغي ألا تغيب عن هـذا الذي نقل إليك الحديث . أو وشى به لدى سلطان أو غيره:

الحقيقة الأولى:

أن من نقل إليك . . نقل عنك . . لأنه لا ينم الحديث حبًا فيك. . وكراهية لغريمك. . وإنما هو من قوم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا. . وإذن . . فهو عدو مشترك بينكما . . فلا تسمع منه. . وإذا ظننت فلا تحقق. .

الحقيقة الثانية:

أن الذي ينقل إليك إنما يشتمك أنت . . فأنت لم تسمع من الغائب . . وإنما سمعت من هـذا الناقل والذي يشافهك بما عابك به القائل . .

جاء في روضة العقـلاء: من وشى بالشيء إلى إنسان بعينه . يكون قصـده إلى المخبر أكثـر من قصده إلى المخبـر به . لمشافهتـه إياه بالشيء الذي يشق عليه علمه وسماعه.

ولقد أحسن الذي يقول:

من يخبـرك بشتـم عن أخ ... فهو الشـاتم .. لا من شتمك
ذاك شيء لم يشـافـهك به ... إنما الـلوم علـى من أعلـمك
كيف لم ينصرك إن كان أخًا ... ذا وفـاء عند من قـد يظلمك
إنما رام بإبـلاغ الذي ... نم فيه ـ فاعلمن ـ أن يرغمك
فـأهنـه.. إنه من لؤمـه ... إن تهـنه بهـوان أكـرمك
لكن الحـر إذا أكرمتـه ... لم يصـغـرك ولكن فـخـمك

مسئوليتنا .. في مواجهة النميمة:

إذا استطاع النمام أن يقوم بعمليـة اختراق الصف المتماسك بما ينقله إليك من حديث مـسموم فإن واجب الأخوة يحـتم عليهم القيـام بهجوم مضاد يـحبط مفعول كـلمة مريضة يلوح بهـا الوسواس الخناس من الجنة والناس:

ولقد لخص علماؤنا مـا يجب على المستمع في مواجهة النمـام فيما يلي:

١ ـ عدم قبول كلامه . . فهو شهادة مردودة عليه لأنه فاسق.

٢ ـ نهيه عن هـذا المسلك الخبيث.

٣ ـ بغض النمام في الله.

٤ ـ ألا يظن السوء بأخيه المسلم الغائب.

٥ ـ ألا يتجسس محاولا التأكد من صحة ما سمع.

٦ ـ أن يكتم ما سمعه، حتى لا ينتشر فيحقق مآرب النمام.

وكان ذلك مسلك العارفين بطبيعة النفوس دائما:

كانت العلاقة بين «حاتم الطائي» وزميله في الكرم «أوس بن حارثة» مضرب المثل في القوة والثبات. .وقرر صديقهما «النعمان» أن يعرض هذه العلاقة لامتحان عسير.

فقال: والله لأوقعن بينهما!

فذهب إلى «أوس» وقال: يزعم «حاتم» أنه أفضل منك.

فقال أوس: صدق . . إن حاتما كريم جواد . . ولو ملكني أنا وعيالي وأهلي لتصدق بنا في يوم وليلة!

ولماذا ذهب إلى حاتم لينقل إليه ادعاء «أوس» أنه خير منه . . قال حاتم: صدوق والله! إن له عشرة أولاد . . أقلهم أفضل مني!!

ويعود الصديق بحقيقة تفرض نفسها . . هي: إنه لم ير أفضل من الاثنين معًا! . .وربما عاد إلى بيته بقراره الحاسم: ألا يجدد التجربة بعد ذلك أبدا.

إن عنصر المنافسة في مجال العلم. أو التجارة . أو الشرف . كثيراً ما يحمل على كتمان الحق . . إلى حد يحاول المنافس التفرد بالفضل وحده.

وقد يعظم الإحساس بالذات تحت ضغط التنافس إلى كتمان فضائل

الآخرين.. والتعريض بهم.. مما يعرض الفضيلة نفسها لخطر الاهتزاز في أعين العامة.

لكن حاتمًا ورفيقه.. لقنا النمام درسًا لا ينسى.. ثم برهنا على أن اليد السخية المبسوطة بالعطاء تستمد طلاقتها من قلب نظيف.. ولسان عفيف!

ولقد طلع الإسلام على هذا الخلق الجميل فزاده رسوخًا وجمالاً:

فقد وقع بين «الحسن» وأخيه «محمد بن الحنفية» خلاف.. ومشى بعض الناس بينهما بالنمائم.

فكتب ابن الحنفية إلى أخيه «الحسن» يقول: أما بعد: فإن أبي وأباك: عليّ بن أبي طالب: لا تفضلني فيه. ولا أفضلك.

وأمى: امرأة من بنى حنيفة.. وأمك فاطمة الزهراء. بنت رسول الله (ﷺ)، فلو ملئت الأرض بمثل أمي.. لكانت أمك خيراً منها.

فإذا قرأت كتابى هذا.. فأقدم حتى تترضاني.. فإنك أحق بالفضل مني!!

ولقد كان المتوقع أن يبدأ ابن الحنفية أخاه بالزيارة.. وهو صاحب مبادرة السلام هنا ليذهب دون أخيه بالفضل!

لكنه لم يفعل.. ووقف بأخيه حيث رشحته للفضل أصوله الفاضلة.. وقبل أن يتقول الحساد الأقاويل.. وحتى لا تظل الثغرة مفتوحة بين الاثنين ليدخل منها المغرضون..

أى أن العدل الملحوظ في قصة حاتم مع أوس.. يصير في ظل الإسلام فضلاً وإيثاراً.. يقطع الألسنة فلا تحاول التشهير.

صحبة الصالحين:

وما زال في أمتنا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فلم يمكنوا منهم نمامًا. . لما واجهوه بالقسوة الحازمة فأحبطوا عمله:

ومنهم ذلك العالم الذي قيل له: إن فلانا شتمك! فأجابه على الفور: أما وجد الشيطان بريدًا غيرك؟!

ولا يبقى بعد ذلك إلا الخطوة العملية الأخيرة . . وهي أن يعلن المنقول عنه. . والمنقول إليه . . الصلح . . ففي صلحهما هلاك النمام. .

وإذا لم تتم هذه الخطوة العلمية . . وبقي الطرفان متباعدين . . فسوف تتاح للنمام فرصة أخرى لاستئناف محاولة القطيعة . . وحينئذ فسوف يتسع الخرق . . ويتعقد الموقف . . ليكون الأمر على ما قال الشاعر:

نبآني يا نخلتيَّ حلوان ... واذكرا لي من ريب هذا الزمان
واعلما ـ إن بقيتما ـ إن نحسا ... سوف يأتيكما فتفترقان

وفي ذات يوم: دفع رجل إلى الصاحب بن عباد برقعة ليأخذ مال يتيم . وكان كثيرا. فكتب الصاحب على ظهرها: النميمة قبيحة . وإن كانت صحيحة.

والميت (رحمه الله). . واليتيم . . جبره الله. . والذي يسعى بالنميم . . لعنه الله. . ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الذين يحاكمون أنفسهم:

وقد بلغت حساسية هذا النفر الكريم حدًا حملهم على الاستغفار للغائب الذي لا يملك الدفاع عن نفسه . . من كل ما يظن أنه مضربه . مما لا يكاد يخطر على بال أحد من عامة الناس:

كان عابد مريض . ينفق على مرضه . . . فلما عز الدواء . وأفلس . قيل له : اقترض من فلان .

فقال : أنا أتورع عن مالي الذي قد أظن به شبهة . فكيف بهذا المال الذي لا علم لي به مطقًا .

لكنه ظن أنه قد عرض بهذا الرجل الغائب . . فقال للحاضرين : استغفروا له . ثم قال : ربما كنا اغتبناه بهذا الذي قلناه ! .

وفي مجالسة هؤلاء العارفين ما ينشئ في النفوس عادة التثبت قبل المجازفة بحكم لم تتوفر دلائله . . فيسلم العقل من التسرع والتهاون بأقدار الناس .

ضرورة المواجهة:

ومن واجب المنقول إليه أن يعقد مواجهة بين الناقل والمنقول عنه على نحو تتبين به الحقائق على أرض مكشوفة . . يصفو بعدها الود . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة :

وشى واش بعبد الله بن همام السلولي إلى زياد .

قال : فبعث زياد إلى ابن همام . . فجاء . فأدخل الرجل بيتا . فقال له زياد : يا ابن همام : بلغني أنك هجوتني . فقال له : كلا أصلحك الله ! ما فعلت . . وما أنت لذلك أهل . . قال : فإن هذا أخبرني ـ وأخرج الرجل ـ فأطرق ابن همام هنيهة ثم أقبل على الرجل فقال :

وأنت امرؤ..أما ائتمنتك خاليًا فخنت، وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

قال : فأعجب زياد بجوابه ، وأدناه ، وأقصى الساعي ولم يقبل منه .

ولهذا الإجراء السريع الحاسم أثره في ردع النمامين:

فقد أعلن على الملأ كذبه .. مما حذر الناس منه .. ومن ثم زال خطره.

ولقد كان الليث أذكى من ابن همام:

فقد سعى رجل بالليث بن سعد إلى والى مصر.

فبعث إليه فدعاه. فلما دخل عليه قال له: يا أبا الحارث: إن هذا أبلغني عنك كذا وكذا. فقال له الليث: سله - أصلح الله الأمير - عما أبلغك؟ أهو شيء ائتمناه. فخاننا فيه؟ فما ينبغي لك أن تقبل من خائن! أو شيء كذب علينا فيه .. فما ينبغي لك أن تقبل من كاذب.

فقال الوالي: صدقت يا أبا الحارث! .. فكان درسا للناقل والمنقول إليه معًا!

والمرأة على الطريق:

عن إبراهيم بن أبي عبلة قال: كنت جالسا مع أم الدرداء . فأتاها آت فقال:

يا أم الدرداء .. إن رجلاً نال منك . عند عبد الملك بن مروان.

فقالت: أن نؤتين - نتهم - بما ليس فينا . فطالما زكينا بما ليس فينا.

لقد كان المتوقع أن يدافع الناقل عن أم الدرداء في غيابها .. إن كان فعلاً يهمه أمرها..

فإن لم يفعل فلا أقل من أين يسكت بدل أن يفتح عليها جبهة تهب منها المتاعب .. لكنه آثر ما يوائم طبعه الملتوى فنقل إليها ما تكره ..

فأرادت (ﵤ) أن تلقنه درسا لا ينساه .. هو وأمثاله من

الواشين . .

فإذا كـان الرجل قد نال منها . . فهي زكـاة تؤديها نظير تزكـية لم تكن تستحقها في نظرها من أناس يقدرونها قدرها .

فهي إذن تغلق باب النقاش في قضية ينبغي ألا تشغل البال . . على أن يكون الرد المناسب هو : مزيد من العفـو . . ومزيد من العمل الصالح يخرس الله به ألسنة الحاقدين .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز أسد رأيًا وأصدق لهجة مع واحد من مدرسة الواشين : قال له رجل : إن فلانا يسبك في الأسواق .

فقال له عمر : اسمع يا هـذا! هنالك قوم يسبون الواحد الخلاق . . ثم أنت تسمعهم كما يسمعهم غيرك . . وتدعهم وشأنهم!

فإن رأيت أحدًا من مثل هؤلاء : فأسر إليـه النصيحة . . واعفني من هـذا النفـاق!! إن رغبة الـواشى هنا ملحة أنسـته بإلحـاحهـا حقـيقة لا تقـبل النسيان . . وهو وأمثاله يمرون عليها وهم عنها معرضون . .

فما أكثـر الذين يسيئون الأدب مع خالقهم (سـبحانه) ومع ذلك لا تتحرك شـعرة في رأس غيور . . فإذا قـصروا في حق الخالق . . وهزهم أن يشتم المخلوق . . فهو النفاق في أوضح صوره . .

والحل العملي هو ما قال الخليفة : أن يباشر الناقل وظيفته مع الشاتم أولاً دفاعًا عن أخيه المسلم بظهر الغيب . . وعندئذ تنتهي مهمته . .

أما نقل المعركة إلى مجلس المشتوم . . فهي الغفلة عن الحقيقة الكبرى والتي لفت الخليفة نـظره إليها . . وهي أمارة رغبـة من الواشي في الإفساد لا تخفى على أحد . .

وعليه من الآن أن يصحح خطأه ؛ بنصح من الواشين نـصحًا يفر به

من وصمة هذا النفاق!

قبول الاعتذار:

من شيم الأحرار قبول الاعتذار..

يقول الشاعر:

إذا اعتذر الصديق إليك يوما من التقصير عذر أخ مقر
فصنه عن جفائك واعف عنه فإن الصفح شيمة كل حر

لقد أتاك معترفا بخطئه.. منقادا إليك على الأقل بظاهر حاله.. وهو ممن آذاك تحديًا.. واستهتارًا.



ويبقى الود ما بقى العتاب

بعد قبول العذر ابتداء . . يجيء دور العتاب . . والعتاب الرقيق الرفيق . . إن المذنب في حقك يأتيك ونفسه مكسورة . . يغض طرفه خجلا . . فلا تثقل عليه الحمل . . وكن كريما في عتابك . . فلا تناقشه الحساب تعذيبا . . واترك لنفسه اللوامة أن تكمل الشوط معه . . حتى إذا قبلت الاعتذار . . أعنته على أن يستأنف معك رحلة جديدة شعارها الحب الصافي . . والحياء الدائم منك. فإذا عاتبت فلا تسرف . . وهذا ما يحضك عليه كرام الناس تلافيًا لآثار العتاب المر:

قالوا: الواجب: المعاتبة على الهفوة . . . وقبول العذر. إذا اعتذر . . . وترك الإكثار من العتب . . . مع توطين النفس على الشكر عند الحفاظ . . . وعلى الصبر عند الضياع . . . وعلى المعاتبة عند الإساءة.

قال الشاعر:

كاف الخليل على المودة مثلها ... وإذا أساء فكافه بعتابه
وإذا اعتبت على امرئ أحببته ... فتوق ظاهر عيبه وسبابه
وألن جناحك ما استلان لوده ... وأجب أخاك إذا دعا بجوابه

ولقد قرر العارفون أن ترك العتاب بالمرة . . جفوة لا تسمح للعلاقات أن تعود كما كانت . . وإصرار من المظلوم بلا مسوغ بعد اعتذار المسيء:

فمن لم يعاتب على الزلة، لم يكن يحافظ للخلة.

وظاهر العتاب . خير من مكتوم الحقد . . ورب عتب أنفع من صفح .

إن من سوء الأدب كثرة العتاب . كما أن من أعظم الجفاء ترك العتاب . وهو مؤد إلى معاودة المعاتب لما عوتب فيه .

قال الشاعر :

معاتبة الألفين تحسن مرة ... فإن أكثروا إدمانها أفسد الحبا
إذا شئت إن تقلي فزر متتابعا ... وإن شئت أن تزداد حبا فزر غبا

وقال آخر :

أعاتب إخواني وأبقي عليهموا ... ولست لهم بعد العتاب بقاطع
واغفر ذنب المرء إن زل زلة ... إذا ما أتاها كارها غير طائع
وأجزع من لوم الحليم وعذله ... وما أنا من جهل الجهول بجازع

التحذير من مواصلة العتاب:

قال عليّ بن أبيطالب : (لا تكثر العتاب ، فإن العتاب يورث الضغينة ، والبغضة ، وكثرته من سوء الأدب) .

دروس من مملكة الحيوان والجماد:

ألا يستحي الإنسان حين يقطع بالكلمة الخبيثة ما أمر الله به أن يوصل؟

ألا يعتبر بالوفاء المعروف في مملكة الطير والحيوان والجماد؟ :

إن الوفاء يجمع زوجي الحمام . . ونبل الحصان يربطه بصاحبه حتى الموت . . وكبرياء الأسد يرفعه عن الهجوم على فريسته من الخلف . .

لقد قفز الأسد على مدربه محمد الحلو من الخلف . وأنشب فيه

أظافره . فأصابه بجرح قاتل .

ثم. .امتنع عن الطعام. .حبس نفسه في قفصه. . .نقلوه إلى حديقة الحيوانات. . .حاولوا أن يروحوا عنه بأنثى. . .ضربها. . وطردها. . .وظل صائمًا عن الطعام. .ثم انقض على يده الآثمة . . وظل يمزقها حتى نزفت . . ومات !!

هكذا فعل الوحش . . بنفسه لما خان صاحبه. . .فماذا فعلنا نحن بإخواننا؟

ألا وإن الزهر يقبل بعضه بعضًا. . .والجبال تعانق السحب. . .والماء يحتضن بعضه بعضا. . .ونور الشمس يقبّل فجاج الأرض. .

فلنتعلم من الطبيعة أن نحب . . وأن نعفو . . وبالحب . . والعفو . . نجعل الحياة من حولنا جنة. .

ومن جعل الدنيا جنة كل جديراً بدخول جنة عرضها السموات والأرض. ورضوان من الله أكبر.

وبعـــد...

فلا تصدق الكلمة من ألف فم. . واسأل من شاهد . . ولاتصدق كل من شاهد . . حتى تتأكد من أنه ليس صاحب هوى.

وقبل ذلك تذكر أن كل بني آدم خطاء . . وأن استهدافك بالغيبة والنميمة دليل فضلك . . لأن النمام إنما يهاجم من هو أفضل منه كما أن العصافير لا تنقر إلا أجود الثمار.

فإذا جاءك أخوك معتذرًا فتقبل منه تقبلاً تعود به العلاقة صافية كما كانت . . ولا تمنن تستكثر. .

وإذا قالوا في الغرب: اغفر لأعدائك . . فلا شيء يضايقهم أكثر

من ذلك . فإن توجيه الإسلام هنا شيء آخر . . لأن ذلك المنطق الغربي يجعل من قبول الاعتذار وسيلة إلى تصفية حسابات قديمة . . ومن ثم لا يلتئم الجرح . . وتظل المعركة مستمرة . . لتتيح لشياطين الإنس والجن أن يشعلوها . . وكلما خبت زادوها سعيرا.

وما أجمل قول الشاعر:

إني وهبت لظالمي ظلمي ... وشكرت ذاك له على علمي

ورأيته أسدى إليّ يدا ... لما أبان بجهله حلمي

رجعت إساءته عليه ولي ... فضل فعاد مضاعف الجرم

فكأنما الإحسان كان له ... وأنا المسيء إليه في الزعم

ما زال يظلمني وأرحمه ... حتى رثيت له من الظلم؟؟

وحين تفعل ذلك تكون قد نقلت المعركة إلى أرضه . . وعذبته بيده . . بل قتلته بسلاحه!!



الصائدون في الماء العكر[1]

في عمر كل إنسان لحظة تسأم فيها نفسه الحياة . . وتضيق بالأحياء ذرعًا . . ويتلفت الإنسان حوله . . فلا يرىٰ إلا ظلمات بعضها فوق بعض . . إذا أخرج يده لم يكد يراها . . يخون الصديق . . ويغدِر القريب . . وتتوالىٰ مطارق الزمان . . فتدق أعصاب الإنسان . . بلا رحمة . . وبلا هوادة . . وإذا هو وحده . . مع الأيام . . لا أنيس ولا جليس . .

وفجأة . . وعلىٰ غير ميعاد . . يفتح عينيه مليا . . فإذا شعاع سني . . ينبثق من خلال هـٰذا الظلام . . إذا بالأقدار العليا تسوق إلىٰ الإنسان صديقًا ودودًا . . يأنس به . . ويطمئن إليه . . وفي كلمة عذبة منه تذوب آلام الحياة وأسقامها . . ويتحول شرابها المر إلىٰ عذب فرات . . ويسعى الصديقان علىٰ الأرض معًا : يد في يد . . وقلب علىٰ قلب . . وروح تناجي روحًا ! . . يحملهما الزمان علىٰ قدمين من ليل ونهار . . في طريق واحد . . إلىٰ هدف واحد . . الموسر منهما ينفق . . والعارف يوجه . . والقوى يعاون . . وصاحب الجاه يسعىٰ . .

وذات يوم . . قد ينشأ بينهما خلاف . . فخصام ! . . وفي غمرة تعصب الإنسان لرأيه وفكرته قد ينطق بكلمة تجرح صديقه . . مجرد كلمة عابرة . . لا تمتد جذورها إلىٰ أغوار القلب . . إنما هي فقط سحابة صيف عن قريب تنقشع . . ثم تهب نسمات الوداد من جديد . . لتعود الألفة الغاربة إلىٰ العش الجميل تارة أخرىٰ . .

(١) كتبت هـٰذه الفكرة منذ أربعين سنة تقريبا .

ولكن .. أيها الزمان ترفق!!.. إن أعداء الحياة كثيرون .. والطابور الخامس لا زال يباشر سلطاته .. منذ كانت هناك حياة!! فيصطاد في الماء العكر..ولا يظهر أحدهم إلا في ساعة العسرة. وعندما يكشف الخلاف عن وجهه البغيض..

إنه يلتقط هذه الكلمة البسيطة .. ليحمّلها مفاهيم جديدة.. ويلصق بها أفكارا لم تكن تخطر لقائلها على بال... ثم يقدمها هدية متواضعة لمن قيلت في حقه الكلمة .. فيثور بعد أن كان مستعدا للسلام..

وفي غمرة ثورته تلك .. قد ينطق بكلمة تطفئ فورة نفسه الثائرة .. ومن ثم .. يلتقطها هذا النمام .. أو قل هذا الكلب العقور .. لينقلها بعد تمحيص وتدقيق .. ولا عجب .. فمن نقل إليك .. نقل عنك!!

وتبدأ على مسرح الحياة معركة حامية .. معركة .. لا من أجل دم أريق .. ولا من أجل فضيلة طويت..

بل من أجل كلمة قالها صديق في ثورة غضبه .. فالتقطها آخر .. وحولها إلى قذيفة مدمرة..

عجبا!..لقد كانت كلمة .. فغدت نقمةً.كانت ألفاظًا .. فأصبحت شواظًا!.كانت معنى .. فأصبحت ضغنا!

وهكذا يفعل الحقد الكامن فعلته!!

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى..وصوت إنسان فكدت أطير!

إن هؤلاء النمامين الحاقدين .. ليَمرغون جبهة الإنسانية في

الرغام.. وهم لا يشعرون..

إن جريمة القتل قد تكون نتيجة نزوة طارئة .. يندم القاتل بعدها.. *وجريمة الزنا إنما تكون ثمرة دفعه الغريزة وغلبه الشهوة ،، وقد* يصحو الضمير على أثرها.. نادمًا...والسرقة قد توجد نتيجة للجوع يَعوي في جسم الإنسان..

أما هذه الجريمة .. جريمة الوشاة الذين يتخطفون الكلمة .. لينقلوها عنك لأفدَح من السفاكين عبئًا وأشد خطرًا...لأنها جريمة مع سبق الإصرار .. يرتكبها الإنسان وهو حاضر الوعي .. وله إرادة .. وإنها لتطعن مبادئ الإسلام في الصميم!..لأن الإسلام يأمر بالأخوة وهم يقطعون حبالها.. وينهي عن الحقد وهم يبذرون حباته في القلوب..

وهم كالبحر الأجاج .. يضيع بين أمواجه العاتية حصاد الواعظين والمصلحين من الهدي والرشاد!!

بل إنهم لأشد على الإسلام من أعدائه الألداء..لأن أعداءه الظاهرين تعرفهم بسيماهم ..أما هذا الطراز من الناس فيحمل أسماء إسلامية.. ويمارس شعائرنا.. وفي الوقت نفسه يلطخون مبادئه في الوحل!!

والنمام.. عدو لك ولقومك من نوع جديد: يأكل معك .. ويشرب معك.. ثم يطعنك من الخلف طعنة قد لا تقوم بعدها:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتأم ما جرح اللسان..

وإن شاس بن قيس .. الذي نقل كلام الأوس للخزرج .. في عهد الرسول (ﷺ) .. وكاد يعلنها حربا شعواء .. هذا الرجل لم

يمت!..إنه يعـيش بيننا في أشـخاص مـريدية! الذين يضـاهئون خطتـه ويُحيون سنته ولـم يكن يعلم وهو يودع الحـياة .. أن الزمان سينشق عن تلاميذ مخلصين كهؤلاء.. يحملون رايته ويبلغون رسالته!

وعندما يحـاول الإنسان أن يرفع السـتار عن نفسـيات هؤلاء الناس .. سيجد حتما بذرة الحقد تكمن في طواياهم ..

ويا ويح إنسان طوى جوانحـه على تلك البذرة الملعونة!..لأن كل إنسان يموت في العمـر مرة .. أما الحقود .. فـإنه يموت في اليوم ألف مرة ومرة!

فكلما رأى أثرًا من نعمة الله على عبـده أكل الحسد قلبه .. فسال سمًا زعافًا! ومات همًا وكمدًا!.. ثم يصحو من سكرته .. ليبدأ الشوط من جديد!

أتراني قسـوت في الأسلوب على هؤلاء؟!..أفهـمت أنني لُدغت من هـذا الحجر مرة؟..وأنا أقول لك .. نعم!

ومن حق الذين تجرعـوا من هـذه الكأس .. أن يعزوا أنفـسهم.. بكلمـــات!.. وليس مــعنى ذلك أن نفـــسي تكاد تذهب مــن أجلهم حسرات.. لا..وألف مرة لا.

وكيف آسى على قوم حاقدين؟!

وليس من الغريب أن يكون لك في الحيـاة أعداء.. إنما الغريب أن تعيش فيها بلا صديق .. يحبك .. وعدو يبغضك؟

لقد آمنت بأن أعـدائي سر وجودي..وتَطَلُّعهم إليّ .. وتهـجمهم عليّ .. إنما هو طاقات تمدني برشفات الحياة!..

وما على الإنسـان إلا أن يبذل من ذات نفـسه .. ولا يضيـره بعد

ذلك أن اغتابه الناس .. وأطلقوا من حوله سحب الإشاعات..

. وليجعل من أحجار الطريق ركائز يقفز منها إلى مستقبل أفضل .. بدل أن تصبح أمامه سدا منيعا..

عِداي لهم فضل عليَّ ومنَّة فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هموا بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

إن المياه العذبة لا يعنيها أن يسميها الحاقدون حنظلا . وستدفع الأرض لتروي غُلة الظمآن .. والنجم الزاهر على صفحة السماء .. سوف يرسل الضوء من عليائه رقيقًا.. وإن بسط الخلق أكفهم ليمنعوه!

والوردة ـ كما يقول شكسبير ـ لا يضيرها أن يسميها الناس شيئًا آخر. وسيبقى عطرها عبق الشذى .. ولم يوجد على بسيط الأرض كائن أحبه كل الناس..

فحيث اختلفت المنازع .. وتباينت المشارب فلا بد من خصام. فهل علم ضعاف النفوس أن العداوة لا تقطع من حبل العمر شيئا؟

أنت رجل صادق .. وسيحبك الصادقون ويزور عنك الكاذبون.. أنت رجل كريم .. سيميل إليك الكرماء .. ويكرهك البخلاء. أنت رجل ذكي .. فلا بد أن تتلقى في كل يوم طعنات الأغبياء!!

ولقد سئل «كونفسيوشن» يوما: ماذا تقول إذا جمع أهل قرية على حب شخص من الأشخاص؟

قال: هذا لا يكفي: الأفضل أن يحبه الطيبون ويكرهه السيئو السمعة!

والذين يعيشون عن هذه الحقيقة قوم جاهلون. فالرجل الذي

يحاول أن يُرضى جميع الأذواق . . شخص فاشل يبني حياته على غير أساس . . ولا بد أن ينزل وهو في الطريق إلى غايته . . عن كل مقومات شخصية . . ثم يجد نفسه في آخر الشوط فاقد الكرامة . .

وماذا يضيرك أيها المؤمن إذا سماك حسادك زنديقا؟ وماذا عليك أيها الكريم إذا دعاك الناس مسرفاً؟ وما ذنبك أيها العابد إذا ظلموك فوضعوك في قائمة الرجعيين؟!

فلتمض إذًا لغايتك . . فطريق الحياة طويل . . في حاجة إلى صبر أيوب . . وكفاح موسى . . وجهاد محمد . . عليهم الصلاة والسلام.

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إن العبقرية في ذروتها السامقة . . لم تسلم من العداوة أبدًا . . وبالأمس البعيد تبجح سدنة الأصنام وقالوا: إن محمدا ساحر ومجنون . . وراحوا يتفننون في إيذائه . . كأنهم في سباق . . ولكنه وقف بين معمان المعركة الطحون طودًا راسخًا . . ثم مس بأنامله الرحيمة قلوبهم . . وضرب على أوتارها . . فأرسلت في أرجاء الصحراء لحونا شنفت الآذان روعة وإيقاعا . .

ولنا في رسول الله الكريم أسوة حسنة . . وما علينا إلا أن نسرع إلى ربوة النجاة هذه لنتعلم هناك فن الحياة . . لنتعلم فضيلة الصفح والتسامح . . بالنسبة إلى هؤلاء الذين يشتمونا من وراء ظهورنا!؟

من اليوم تعاملنا:

وعزاؤنا أن من يغتاب الناس كمثل من ينصب منجنيقًا ويرمي به حسناته شرقًا وغربًا!

ولقد بلغ «الحسن» (رضي الله عنه) أن فلانًا اغتابه . . فأرسل إليه طبقا من

رطب وقال له: بلغني أنك أهديت إلى حسناتك .. فأردت أن أكافئك!!

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك.. فقال: لو كنت مغتابا لاغتبت أمي.. لأنها أحق بحسناتي!

وهذه كلمات رطاب نتلقاها من قلب شاعر حكيم .. حبذا لو اتخذناها شرعة ومنهاجا .. ننقذ به علاقتنا أن تتقطع في دوامة الأحقاد:

قال البهاء زهير:

من اليوم تعاملنا ... ونتسى ما جرى منا
فلا كان ولا صار ... ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولا بد ... من العتبى فبالحسنى
فقد قيل لنا عنكم ... كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر ... فقد ذقتم وقد ذقنا
وما أحسن أن نر ... جع للوصل كما كنا



النعمة بين الشكر والكفر

يأخذ الشكر في الإسلام معناه المتراحب . . حين يتجاوز الأقوال إلىٰ الأعمال . . ليتم معناه كمالاً:

فحقيقة الشكر: الثناء علىٰ المنعم . ومحبته ثم العمل بطاعته.

والأصل في ذلك القرآن والكريم والسنة المطهرة: يقول (تعالىٰ): ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

دلت الآية الكريمة كيف بدأ الشكر في صورته الحركية عملاً دائبًا . .

وفي سورة الأحقاف يقول (تعالىٰ):

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

بعد أن تحدثت الآية الأولىٰ عن دعاء المؤمن ربه التوفيق إلىٰ الشكر . . جاءت الآية الثانية استجابة لهذا الدعاء بتسمية الشكر ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ ليأخذ معناه المتراحب: قولاً باللسان . . وعملاً بالأركان . .

ولما قيل له (ﷺ): أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟»[1].

(١) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

ويلاحظ أنه (ﷺ) سمى الأعمال شكرًا . وأخبر أن شكره عليها هو: قيامه بها ومحافظته عليها.

وقد فهم المسلمون ذلك المعنى. وهذا شاعرهم يصور هذه الأبعاد المترامية . . لحقيقة الشكر في قوله:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

(فاليد: الطاعة. . واللسان: الثناء. . والضمير: للحب والتعظيم)(١).

الشكر يساوي الإيمان:

ويعني ذلك أن الشكر هو عين الإيمان الذي هو في مفهومه: قول وعمل. .

فالتوفيق إلى فضيلة الشكر تعبير عن هذا الإيمان. . ومتى أخل المرء بواجبات الشكر فقد أخل بواجبات الإيمان. . وفقدان الشكر معناه: فقدان الإيمان. . وذلك قوله (تعالى):

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالحق (سبحانه و تعالى) يعلم الناس أن الشكر سبب لزيادة النعم. . ووفرة النتاج. . بقدر ما يكون نكرانها كفرا يعاقبون عليه بالعذاب. . والعذاب الشديد.

ومن صور هذا العذاب: فرار النعم من بين أيديهم. . فيغيض الماء. ويكون الجفاف. . ويقل الغذاء. . . فيضمر الجسم . . ويكون المرض. . ولا حياة هناك بين شقيّ الرحى: مرض الطبيعة. . ومرض الإنسان.

---

(١) طريق الهجرتين صـ: ٤٩٢.

وإذن.. فما أصعب مهمة شكر النعمة.. ما دامت هكذا: قولاً.. وعملاً.. وهذا بعض ما يفهم من قول ابن عوف (ﷺ): (ابتلينا بالضراء فصبرنا. وابتلينا بالسراء فلم نصبر) يعني: «لم نشكر»

وهو درس للأمة التي تحاول الخروج من مشكلاتها.. راغبة في استعادة ما زايلها من نعم.. أن تحسن الشكر..

يقول ابن الجوزى: (من أحب تصفية الأحوال فليجتهد في تصفية الأعمال.. ومتييرأيت تكديرا في حال لله فاذكر نعمة ما شكرت.. أو زلة قد وقعت. فاحذر من نفار النعم. ومفاجأة النقم)[1].

تأملات في الآية الكريمة:

إن الآية الكريمة بيان للناس.. وهدىً وموعظةً للمتقين منهم... بيان وإعلام بسنة من سنن الله (تعالى) في الاجتماع البشري: يجليها للناس «ربهم» الذي تعهدهم بعنايته فأنشأهم ابتداء.. ثم ها هو ذا (سبحانه) يبصرهم بمضلات الطريق.. حتى يصلوا إلى غاياتهم سالمين: ﴿لَئِن شَكَرْتُم..﴾ [إبراهيم: ٧].

وفيها معنى التشكيك في نهوضهم بتكاليف الشكر.. وهو ليس تعجيزا.. وإنما هو: تحريض عليه.. وإلهاب للمشاعر.. ودعوة إلى مراجعة النفس والوعي بحجم النعم التي يتقلب فيها الإنسان.. حتى إذا تصورها من جديد على ضوء هذه الإشارة.. هب من رقاده شاكراً ذاكراً..

ألا وإن الإحساس بهذه النعم سبيل إلى نمائها.. وذلك قوله (تعالى) ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ ..﴾ [إبراهيم: ٧] والنعمة ضيف.. فلنكرمه..

(١) صيد الخاطر: ١٠.

ليستدعى غيره.. ولعل التأكيد باللام هنا.. لفت للعقول كي تحسن قراءة النعم.. التي قد لا ندركها فإذا شكرتم.. فبها..وإلا.. فإن الجحود.. سيكون كفرًا..

والكفر بغيض في حس المسلم.. وإذن فالتعبير به: تنفير منه.. ومن تبعاته..

ولا تقول الآية الكريمة: ولئن كفرتم.. لأعذبنكم...

وإنما تقول: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]. ترعيبا.. ومن بعيد.. ليتوقى المسلم كل بادرة تقربه من دائرة الكافرين.. وليتخلق بفضائل المسلم الذي من شيمته:أن يشكر نعمة الصحة والقوة.. بمساعدة الضعيف..

ونعمة الغنى بالوقوف إلى جانب المحاويج.. ونعمة الذكاء بتعليم الجاهل.. وإنها لقيم ترفع بها الأمة للحضارة بنودًا.. وتبنى فوق الخلود خلودًا.

شواهد من القرآن الكريم:

من الأدلة القرآنية على أهمية الشكر: أن الله (تعالى) استثنى في أمور كثيرة ما عدا الشكر.. فإنه (تعالى) حسم الحكم فيه بلا استثناء.

لقد استثنى (تعالى) في الرزق:﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩].

وفي الدعاء:﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام:٤١].

وفي المغفرة:﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٨٤].

وفي الرحمة: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٧٤].

وفي التوبة: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٧].

أما في الشكر فقد قال (سبحانه): ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ذلك بأن الإنسان يتقلب في نعم الله (تعالى).. ثم هو يعرض هذه النعم للزوال بمعاصيه. ومن ثم يرشده الله (تعالى) إلى ما يستديم به هذه النعم وهو الشكر. فالنعم إذا شكرت.. قرت.. وإذا كفرت فرت.

الشكر أعلى درجات العبادة:

وعلى هذا الأساس يجوز لنا أن نقول: إن الشكر أعلى مستويات العبادة.. لماذا؟

أولا: هو يقين بأن النعمة من الله وحده.. وهذا توحيد.

وثانيا: الإحساس بفضل النعمة على الشاكر.. وهذا معرفة بقدر الله (تعالى).

وثالثا: ثم إن الشاكر يصرف نعمته (تعالى) فيما خلقت له..

وهذا يعني أن الشاكر: خائف.. وجل.. منقاد للحق (تعالى).. خاضع له (سبحانه).. إنه شاعر بأنه عبد الله منتفع بعطاء ربوبيته.. فكيف لا يعطى حق وحدانيته؟

وينشأ عن هذا كله: حب العبد ربه.. والثناء عليه..

وبهذا يستجمع الشاكر خصائص العبودية.. المحتسبة.. المعترفة بالجميل.. لواهب الجميل (سبحانه).

أبعاد النعمة:

وإذا كان للشكر معناه الكامل الشامل للقول والعمل.. فماذا عن مفهوم النعمة في حياة العابدين؟

إن للنعمة مفهومها المتراحب: فهناك نعمة النفع.. ونعمة الدفع.. بل هناك نعمة البلاء أيضًا!

نعمة النفع: وهي ذلك اللون من النعم التي يتنافس فيها المتنافسون.. ومن أجلها يتحاسدون... فصاحب الألف يرجو أن تكون ألفين.. وصاحب العش يرجوه قصرًا.. المرءوس يسعده أن يكون رئيسًا.. والوالد المعنّي.. والذي يتحرق شوقا إلى ولد.. فإذا جاء أنثى حزن.. وإذا رزق من الولد الإناث والذكور جمحت به آماله عبر مستقبل وردي يرى فيه واحدًا طبيباً.. والآخر مهندسًا.. والثالث على الأقل مدرسًا!

وهيهات أن تكون الأقدار على هوانا.. وتمضي بنا حياتنا.. هكذا فلا نكاد نتوقف عبر الرحلة الطويلة كي نلتقط أنفاسنا. ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب..

نعمة الدفع:

ويمكن أن نقف: بهذا الركب الراكض اللاهث وراء الأماني البعيدة.. ليحس بما يتقلب فيه من نعمة الدفع التي هي أعظم من سابقتها أثرًا. ولنتأمل واقع الناس من حولنا.. فماذا نرى؟

إنهم يتنافسون في بناء القصور.. والأرض.. والخيل المسومة والأنعام.. والحرث.. فإذا حصلوها.. شكروا واهبها (سبحانه).. ربما.. وإذا لم تواتهم أقدارهم.. رجعوا إلى نفوسهم.. باللوم.. وإلى

حظوظهم بالخيبة.. ثم نكسوا على رؤوسهم.. فتسمع الرجل.. الصحيح الجسم.. الحصيفَ الرأي.. تقف من ورائه زوجةً وفيةً.. وأبناء بررة.. تسمعه يلعن الظروف التي مكنت غيره من الدار الواسعة.. والسيارة الفارهة.. والراتب الضخم.. بينما هو من كل أولئك صفر اليدين وعاجز الرأي مضياع لفرصته..

ونحن باسم الحق نقطع عليه وعلى أمثاله الطريق لنقول له: أنت معذور.. لأنك ابن عصرك الذي حصر النعمة فيما يقتني الناس من صور المتاع.. ولكن.. أين أنت من نعمة الدفع التي هي أجل خطراً وأعظم أثراً؟ أين وعيك بآلاف البلايا التي أصاب الله (تعالى) بها غيرك.. ثم عافاك منها؟

هل قرأت في الصحف اليومية نبأ الابن الذي قتل والده... والزوجة التي غدرت برفيق العمر..

وهل سمعت خبر ذلك الغني الذي يملك ما لذ وطاب.. من متع الدنيا.. ثم هو محروم من كنز مدفون في كيانك لا يشترى بماله ومثله معه..

إنها المعدة التي.. يهضم بها الحجر.. بينما يذيبه الأسى حين يراك من شرفته العالية وأنت سائر في الطريق.. تأكل عبر الطريق.. لا تشكو عسراً في الهضم... ولا غصة في الحلق!! ثم تعود إلى زوجة وفية.. مطيعة.. عفيفة.. وولد بار.. يمتد به عمرك..

حاول أن تراجع نفسك بهذا المقياس لترى كم أذهب الله عنك من مصائب.. واحمد الله واشكره شكراً لن يكافئ مزيده (سبحانه).. واذكر ذلك الذي دخل المسجد بلا حذاء آسفا.. فوجد آخر بلا قدم.. فحمد الله كثيراً..

رحلة اللقمة: وما أكثر النعم التي تحتوينا.. ولكن الغفلة تنسينا..

ولنتأمل واحدة من نعم لا يحصيها العادون.. وهي المتمثلة في رحلة اللقمة التي تتم بها نعمة الأكل..

جاء في مختصر منهاج القاصدين: الأسباب التي تتم بها نعمة الأكل هي: حاسة اللمس.. للملاصق.. وحاسة الشم.. للبعيد.. وحاسة البصر.. لتدرك ما تعثر عليه بالشم.. وما غاب عنك.. وحاسة السمع لتدرك ما وراء الجدار فرارا من ضرره مثلا.. وحاسة الذوق لتدرك النافع.. لا كالشجرة التي يصب في أصلها المائع.. فتجذبه.. ـ ولا ذوق لها ـ فيكون جفافها.

ثم العقل.. لتدرك به النافع من الأطعمة..

ثم خلق الله (تعالى) لك القدرة والإرادة والحركة.. والشوق المدود إلى الأكل.. وإلا هلكت.

ولا يعرف الإنسان الذاهل عن هذه النعمة إلا أنه يجوع فيأكل ولكن البهيمة أيضا تعرف ذلك!

والأطعمة أنواع: أغذية.. وأدوية.. وفواكه.

ولو كان عندك حنطة لم تزرعها.. لأكلتها.. وفنيت.. فعلمك الزراعة.. وهناك الأرض.. والجو.. وخزن لك الماء في الجبال.. حتى لا يندفع مرة واحدة.. والشمس.. تسخن.. والرياح لواقح. تسوق السحب..

ولما كان الغذاء مفرقا.. سلط على التجار حُبَّه.. وإن كان فيه هلاكهم لينقلوه إليك.

ومعنى ذلك أنك أيها الإنسان: كلك نعمة!

فلو لم يرد الله (تعالى) سَمعك: ما سمعت.. ولو لم يرد بصرك.. ما أبصرت.. ولو لم يرد علمك.. ما علمت.. فعليك أن تذكر المنعم (سبحانه و تعالى) أبدا.. لأن نعمه عليك دائمة أبدا.. ان شكر المنعم واجب أبدا.. لأن معنى النعمة أنه (تعالى).. أجاب سؤلك.. فحقق أملك.. وصدق ظنك.. وأضحك سنك.. وأتحفك بكرمه.. وأطلع في أفقك شموس نعمه.. ورعى جانبك.. وبلغك مأربك.. وأسكنك في العلياء قبابا.. وفتح لك إلى دار السعادة أبوابا.

أقسام النعمة:

من بين ما ترسب في وجداني من دروس شيوخنا: أن النعمة قسمان:

دينية.. تخدم المطلوب الشرعي.. ودنيوية.. تخدم الدنيا.

والنعمة الدينية أجلّ النعمتين.. لماذا؟ لأنها تعني: معرفة الحق لذاته.. ومعرفة الخير للعمل به.. وتلك أكبر نعمة.. إن الحق أسمى شيء.. فغير معقول أن يتخذ وسيلة لما هو أعلى منه.. فلا أسمى منه هناك.. وكل الأهداف دونه.. وطلب الحق لغير ذاته، يبعد طالبه عن الوصول إليه.. ثم يمنع عنه النعمة الحاصلة بمعرفته.

وحتى يظل المسلم راغبا في نعمة الوصول إلى الحق دائمًا.. شاكرًا الحق (تعالى) عليها.. فلا بد له من: ثقافة عالية.. وإرادة عصية على الأهواء مستعلية.. يتخلص بها من حظوظ النفس المعارضة للحق..

ولذلك.. كانت إرادة الحق.. وإدراكه. أجل نعمة في حياة الأمة.. ولا يتم ذلك إلا بلون من التربية الصارمة.. لتظل الأمة ماضية على طريق التقدم.. ولن يكون ذلك التقدم إلا بأمرين:

أ ـ تحمل مشقات إرادة الحق.

ب ـ والقدرة على معرفة الحق.

معرفة الخير:

ومعرفة الخير مشروطة بالعمل به.. لأن معرفة الخير دون العمل به لغو.. لأنه مجهود ضائع.. لأن مقصود معرفته: تحقيقه في النفس.. ثم في الناس..

وإذن.. فالاكتفاء بمعرفته دون العمل به حجة على صاحبه. يستحق بها الذم.

أساس نعمة الدنيا:

وأساس نعمة الدنيا: الأمن.. والصحة..

فالخوف والمرض مانعان من الاستمتاع بها.. ولكن الاستمتاع محكوم بضوابطه الإسلامية:

فينبغي أن يكون الاستمتاع بالنعمة على وفق ما رسم الشارع الحكيم.. إلى جانب توسيع دائرة الاستمتاع.. بإيصال أكبر قدر من الخير إلى الناس..

وذلك أيضًا مشروط بضوابطه وهو: عدم التصادم مع مقصود الشرع: مثل الربا فإن له منفعة للآخرين.. لكنه يصطدم بأصل شرعي.. ومن ثم كان حراما.

من مسوغات شكر النعم:

مما يعين الإنسان على شكر نعمه (تعالى): إحساسه بهذه الحقائق.. فالعطاء من الله (تعالى) وحده. لا لمخلوق مهما كان غنيًا قويًا.

فالله (تعالى) وحده هو مالك: الرزق.. والخير.. والقلوب مسخرة له.. والأسباب والمسببات في قبضته: إن شاء أعدمها فرجع طالب المنفعة خائبا وهو حسير.

ومعنى هذا: أن النعمة ابتداء. منه (سبحانه).. ودوامها إليه (تعالى) باستمرار عطائه. فما قدر لك.. لن يمنعه أحد.. مهما استغنيت ومهما زين لك الشيطان.. ومهما أرقت من ماء وجهك. وإذا كان الحق (تعالى) ينعم عليك على قدره.. فعليك أن تشكره (سبحانه) على قدرك كبشر.. ولا يتم ذلك الشكر إلا بتجاوز نقطة الضعف في كيانك كإنسان وهي:

أن النعمة إذا مستك.. نسيت المنعم.. وذكرتها.. بل ربما نسبتها إلى غيره (سبحانه).. وكثير من الناس يستغرقون في النعمة خوفًا عليها.. وقد يشغلهم الخوف على إفلاتها.. عن شكرها..

وسوف يجيئهم العقاب رادعًا.. متمثلا في الابتلاء بما ينغصها.. فلا تدوم.

نعم الله (تعالى) في الآفاق:

ومن مسوغات الشكر ما بثه الله (تعالى) في الكون من آيات شاهدة بعظمته موجبة لشكره والثناء عليه:

فالكون قائم: على نظام ثابت.. بقدر معلوم.. وهدف مرسوم والشرائع كذلك على أوفى معاني العدل. فالكون من ناحيتيه: المادية.. والفكرية حق متناسق..

ومن شكر هذه النعمة إقامة الحياة على الحق.. من أجل أن تنسجموا مع الكون.. وإلا فبكفر النعمة تتصادمون مع: فطرتكم.. من

الداخل.. ومع فطرة الكون من الخارج.. وتفاديا لهذا المصير الرعيب.. عليكم أن تفتحوا الأبصار والبصائر.. ليتنامى الإحساس بما في الكون من نعم.. وواجب الإنسان أن يؤهل نفسه دائما لرحلة الاعتبار الواسعة:

إنه يسير بنفسه في مناكب الأرض..وأنه يسير بفكره في دروب التاريخ.. ليعود من الرحلة الطويلة خلقًا جديدًا.

لقد كثرت في الناس شارات الحمد والشكر.. ولكن قلت فيهم حقيقته وروحه.. وهي محاولة لتفريغ الفضائل العملية من مضمونها..

ومن وراء ذلك أعداؤهم الذين يريدون تخدير المسلمين بتصدير سلبياتهم إليهم.. فليحذر المسلمون.

نعمة فوات النعمة:

لقد كان إحساس أسلافنا بالمنعم (سبحانه) وبفضله قويًا راسخًا.. من أجل ذلك دار هواهم حيث كان رضاه (تعالى).. وحتى في الوقت الذي يحجب الله (تعالى) النعمة فيه عن أحدهم.. ومع شدة غرامه بحصولها.. فإنه من فرط ثقته بقضاء ربه (تعالى) فإنه يجد في فوات النعمة نعمًا أخرى لا يحسها إلا الشاكرون!

قال العلماء: لا تندم على نعمة حجبها عنك.. لماذا؟

١ـ فقد حماك الله (تعالى) من هم تحصيلها.

٢ـ ثم حماك من هم حفظها بعد تحصيلها.

٣ـ ثم نجاك من الغم على فواتها.

٤ـ وأعفاك من هم الحساب عليها.

وقد ترتب على هذا الفهم الواعي انبساط النفس حين الفقدان.. وفي الوقت الذي يبكي فيه الوالهون ما فاتهم من آمال لن تتحقق.. يتجاوز المؤمنون هذه المحنة.. ليجعلوها منحة بهذا الإدراك السليم..

ومنهم تلك المرأة التي قيل لها: نلاحظ أنك في حالة اليسر والرخاء.. مضطربة وجلة.. بينما الأمر بالعكس لحظة وقوع المصائب.. فإننا نراك مستبشرة راضية..

ولقد فسرت المرأة المؤمنة الواعية هذه المعادلة بقولها: إنني في حالة النعمة.. أتوقع الحساب بعدها.. ولهذا فأنا قلقة.. حذر هذا الحساب والوشيك.. أما حالة المصيبة.. فإنني أتوقع من بعد الفرج.. وهذا سرا استبشارى!

ولقد كان التذكير بنعمة الله مما تواصى به الصالحون.

قال الخليفة لمن مدحه يومًا: أما علمت بالنهي عن المدح في الوجه..

فقال المادح: أنا لا أمدحك.. وإنما أذكرك بنعمة الله عليك لتشكرها: فقال الخليفة: هذه أحسن من المدح.. ثم أمر له بجائزة!

وقد صار ذلك المسلك منهج المؤمنين.. الذين أحسنوا فلسفة الواقع مهما كان قاسيًا.. حتى تتجلى نعمة الله (تعالى).

ومن خلال الغيوم الداكنة: شكا رجل إلى عالم أن لصًا دخل بيته فسرق كل متاعه.. فقال له العالم:

احمد الله (تعالى) أن دخل بيتك لص من البشر فسرق متاعك.. ولم يدخل قلبك شيطان ليسرق إيمانك.. ثم اشكر الله (تعالى) ثانيا على هذه العقوبة الدنيوية العاجلة.. لأنها كفارة لعقوبة الآخرة..

ومتى ربح الإنسان إيمانه.. فما فاته من الدنيا شيء يبكى عليه.. وما أكثر الذين ازدحمت بيوتهم بما لذ وطاب من مناعم الدنيا.. ولكن الشيطان سلب قلوبهم نعمة الرضا.. فمات فيهم الإحساس بما في بيوتهم من نعيم..

ومنهم ذلك الفنان الذي استهوته لحظة غروب الشمس.. فسجلها لوحة رائعة.. ثم استغرق فيها حتى فاتته صلاة المغرب.. وأين هو من ذلك العابد التقيّ النقيّ.. والذي جاءه الناس يهرعون يعزونه في وفاة ولده.. فقال لهم: كان جديراً بكم أن تعذونى لأن صلاة العشاء قد فاتنى أن أصليها جماعة!!

نعمة البلاء:

ولقد كان سلفنا الصالح.. ومن خلال المصائب التي تحل بهم.. كانوا يحسون بمجموعة من النعم.. لا بنعمة واحدة.. وبينما عشاق الدنيا يلطمون الخدود ويشقون الجيوب.. كان المؤمن النقيّ يعتبر المصيبة مدخلاً إلى نعم كثيرة.

قال عمر (رضي الله عنه): ما ابتلاني الله (تعالى) إلا شكرته على أربع نعم:

أولا: أن المصيبة كانت في دنيايّ.. ولم تكن في ديني.

ثانيا: وأنها لم تكن أعظم من ذلك.

ثالثا: وأنه (تعالى) رزقني الصبر عليها.

رابعا: وإني لأرجو الثواب عليها.

إن متاعب الحياة إنما تنبعث أساسًا من نفوسنا.. من داخلنا.. ولقد أذهب هذا الفكر المستنير هذا الحزن.. بصدق النظرة وسداد الرأي:

مر رجل على قبيلة فيها إبل وبقر وغنم زحم الوادي الواسع..

فتغير الرجل لما رأى.. فقيل له: أتحسد الآخرين على النعمة؟ قال: لا.. ولكني رأيت مع النعمة التحاسد والتخاذل.. ومع القلة التحاشد والتناصر، وقد قيل: ما أثري قوم قط.. إلا تحاسدوا وتجاذبوا.

ومن معاني ذلك الفهم العميق أن المؤمن حين يرتقي إيمانه بالله (تعالى) إلى حد أن جعل المصيبة نعمة يشكرها.. فإنه في نفس الوقت يغيظ أعداءه الشامتين الذين يتربصون به الدوائر!

منهج في حمل النفس على الشكر:

كانت حياة ابن الجوزي (رحمه الله) منهجًا في هذا الباب يهدي السالكين: وذلك في قوله: كلما نظرت في تواصل النعم عليّ.. تحيرت في شكرها.. وأعلم أن الشكر من النعم.. فكيف أشكر؟

لكني معترف بالتقصير. وأرجو أن يكون اعترافي قائمًا ببعض الحقوق.. وعندي خلة أرجوا بها كل خير وهي: أن من يصوم أو يصلي يرى أنه تعبد.. ويخدم كأنه يقضى حق المخدوم.

وأنا أرى: أني إذا صليت ركعتين فإنما قمت أعمل لنفسي. إذ المخدوم غني عن طاعتي.

فالعجب ممن يقف للخدمة يسأل حظ نفسه.. كيف يرى أنه قد فعل شيئًا؟

مستويات العبادة:

إنما أنت في حاجتك.. ومنة من أيقظك لا تقاومها خدمتك. فأنا أقول كما قال الأول:

يا منتهى الآمال أنـ ... ـت كفلتني وحفظتني
وعدا الزمان عليّ كي ... يجتاحني فمنعتني
فانقاد لي متخشعًا ... لمّا رآك نصرتني

وكسوتني ثــوب الغنى ومن المعــاطـــب صنتني
فــإذا شكــرتـك زدتني فـمنحـــتني وبهــــرتني
أو إن أجـــد بالمال فـــا لأمــــوال أنـــت أفـدتني

درس بليغ:

ولقد كــانت حياة ابن الجوزي (رحــمه الله تعالى)، مقــاومة للنفس الأمارة النزاعة إلى رفاهة العيش .. ووقف بها على جادة الشكر . ولقد نجح في الانتصار علـيها بتذكيـرها بنعم الله التي لا تحصى .. والتي هي في نفس الوقت تذكير لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

قال: نازعــتني نفسي إلى مكروه في الشــرع . وجعلت تنصب لي التأويلات . وتدفع الكراهة . وكانت تأويلاتها فـاسدة . والحجة ظاهرة على الكــراهة . فلجــأت إلى الله (تعـــالى) في دفع ذلك عــن قلبي . وأقبلت على القراءة . وكان درسي قد بلغ إلى سورة يوسف فافتتحتها . وذلك الخاطر قد شغل قلبي . حــتى لا أدري ما أقرأ...فلما بلغت إلى قوله (تــعالى) ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسـف: ٢٣] انتبهت بها. وكأني خوطبت بها..فأفقت من السكرة. فقلت يا نفس.. أفهمت؟

هـذا حر .. بـيع ظلمًا .. فراعى حق من أحسن إليـه .. وسماه مالكًا وإن لم يكن عليه ملك فقال: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي﴾ . ثم زاد في موجب كفه عما يؤذيه فقال: ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾. فكيف بك وأنت عبد على الحقـيقـة.. لمولى ما زال يحـسن إليك من ساعـة وجودك . وإن سـتره عليك بالزلــل أكثـر من عـدد الحـصى . أفـمـا تذكـرين كـيف رباك . وعلمك. ورزقك ودافع عنك . وساق الخير إليك . وهداك أقوم طريق. ونجاك من كل كـيد . وضم إليك حـسن الصورة الظاهرة وجـودة الذهن

الباطن . وسهل لك مدارك العلوم حتى نلت في قصير الزمان ما لم ينله غيرك في طويله. .وجلى في عرصة لسانك عرائس العلوم في حلل الفصاحة بعد أن ستر عن الخلق مقابحك. فتلقوها عنك بحسن الظن . وساق رزقك بلا كلفة تكلف . ولا كدر منٍّ . رغدا غير نزر؟

فو الله ما أدرى أى نعمة عليك أشرح لك؛حسن الصورة وصحة الآلات؟ أم سلامة المزاج واعتدال التركيب؟ أم لطف الطبع الخالي عن خساسة؟ أم إلهام الرشد منذ الصغر؟

أم الحفظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل؟أم تحبيب طريق النقل واتباع الأثر من غير جمود على تقليد . . ولا انخراط في سلك مبتدع ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كم كائد نصب لك المكائد. . فوقاك؟ كم عدو حط منك بالذم . . فرقاك؟ كم أعطش من شراب الأماني خلقًا . . وسقاك؟ كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك . . وأبقاك؟

فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن . محروسة الدين . في تزيد من العلم وبلوغ الأمل . فإن منعت مرادًا فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين وجه الحكمة في المنع . فسلِّمي . . حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح.

ولو ذهبت أعد من هذه النعم ما سنح امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة. .وأنت تعلمين أن مالم أذكره أكثر. . .وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح. فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه؟
﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣][1].

---

(١) راجع طريق الهجرتين: ٢٣٨، ٢٣٩.

لازم الفائدة:

وإذا كان لهٰذا الدرس فائدة كاشفة عن قدوة في محاسبة النفس . وإلزامها كلمة التقوىٰ . . فإن من لوازم هٰذه الفائدة أن نتعلم . . وألا نبحث عن أسباب عللنا خارج نفوسنا . . إن موطن الداء مستقر في أعماقنا .

فإذا نقصت سلعة . . أو اختفت . . وإذا تضاءل النتاج . . وقل المحصول في يوم الحصاد . . فلنعلم أن ذلك لنعمة لم نشكرها شكرا يتحول إلىٰ عملوسلوك . .

إن في أعماقنا قوىٰ إيمانية ألقت سلاحها ضعفًا واستخذاء . . فهجمت علينا جراثيم العلل من خارج نفوسنا . . فاحتلتها دون مقاومة تذكر . . ونحن مطالبون بتنشيط هٰذه القوىٰ . . لتكون قادرة علىٰ الدفاع . . بل علىٰ الهجوم! ولا يتم ذلك إلا بمراجعة حسابنا مع أنفسنا التي غشاها من الهوىٰ ما غشّىٰ . . فحجبتنا عن رؤية آلاء الله علينا فانسربت من بين أيدينا . . لأننا لم نقيدها بالشكر .

إن الرخاء لا يأتي أبدًا ضربة لازب . . وإنما هو نتيجة طبيعية . . لمقدمات طبيعة . . وكما أن لله (تعالىٰ) شريعة إسلامية تأمرنا بالصلاة وتنهانا عن الفحشاء . . لنفوز بالجنة فإن له (تعالىٰ) شريعة كونية من قواعدها: شكر النعمة . . يزيدها . . وكفرانها . . يذهب بها . .

فإذا لم ننفذ شريعة الله الكونية كما نفذنا شرعته النظرية . . فلا نلومن إلا أنفسنا .



This image cannot currently be displayed.

وكان علـى المنافقين إن لم يتـصدقوا . . أن يسكـتوا . ورحم الله امرءًا تكلم فغنم أو سكت فسلم. . .لكنهم اخـتاروا الاحتمال الأسوأ . . فعابوا الباذلين الصادقين. . وهكذا يقول الواقع دائمًا:

إن الرجل الخسيس . . ينتقم لخِسّته . . لا من الخسيس مثله . وإنما ينتقم من الشريف! .

ولقد كان المنافقون منطقيين مع أنفسهم . . عندما بذلوا فطرتهم في الطعن على الصادقين. . لأن طبيعـتهم تكره الصدق ابتداء ذلك بأنهم لا يملكون إلا المطرقة وهم يواجـهون الناس . . ولذلك صارت الأشـياء في نظرهم كلُّها. . مسامير!!

وإذا كان المنافقون كـذلك . . فما بال أناس من قومي يوشكون في غفلة أن يقتربوا ـ مرغمين ـ من ساحة المنافقين؟ . . حين يتصدون لدعاة الإصلاح . . بالغمز والسخرية . . والمَفْروض أن يكفَّهم إيمانهم عن ذلك المسلك . . ليكونوا مع المؤمنين في اتجاه الإصلاح؟ :

إنهم مطالبون بالانتصار في معركتهم مع النفس الأمارة. . وإذا كان المنتصر على عدوه قويًا . . فإن المنتصر على نفسه . . أقوى!

وكيف يسـمح مؤمن لنفسـه أن يلمزك في مشـروع خيرى تتـحمل مسئوليته بحجة أنك تسعى لنفع أقاربك!

وليكن . . فـهل صـارت صلة الرحم جـريمة يعـاقب علـيـهـا الواصلون؟!

ليت الناس كلّهم يسعون من أجل منفـعة أقربائهم . . إذن لانحلت تسعة أعشار المشكلات في الدنيا!

وهنا أذكر ما قاله مسلم يواجه نفس المشكلة:

لم يفهمني أحد . ولم أفهم أحداً:

إن حزنت . . فأعرضت عنهم . مشتغلاً بأحزانى. قالوا: متكبّر.

وإن غضبت للحق فنازعتُ فيه . قالوا: شرس.

وإن وصفت الحب الذي أشعر به كما يشعرون . قالوا: فاسق.

وإن قلت كلمة الدِّين . . قالوا: جامد. .

وإن نطقت بمنطق العقل قالوا: زنديق.

فما العمل؟

إليك يارب المشتكى . . فمالي في الدنيا بعد أمي صديق.

تلك هي التي كانت تَقْبَلني على علاتي. والناس لا يقبلون إلا محاسني.

تلك التي كانت تحبنى أنا . . والناس يحبون أنفسهم فيّ.

تلك هي الحبيبة الوفية . التي لا تهجر ولا تخون. .

ولم يبق من آثار العالم اليوم . . إلا قبر منعزل . . وساقيه صغيرة. تميل عليها شجرة صفصاف هناك حيث يرقد الوفاء وهذا كل شيء.

ولم يبق إلا أن يظل دعاة الإصلاح في الطليعة . . جاعلين من سخرية الفارغين دافعًا . . بل نعمة مسداة. .

قيل لرجل: فلان ذكرك بكل قبيح . . فقال للواشي: الحمد لله الذي ابتلاه بالكذب عليّ. .ونزّهني عن قول الحق فيه! .

فعلى رغم أنه يملك من الحقائق ما يخزيه . . لكنه لا يشهّر به . . وكل إناء بالذي فيه ينضح!

وهكذا يفلسف الصادقون الموقف لحساب الحق. . ولا يمكّنون المغرضين من حلّ عقدةٍ شدها الإيمان. .

وما زلت أذكر مجموعة من فلاسفة القرية عقدت مجلسًا في محاولة لاكتشاف العلاقة بين العبقرية والجنون. . . وكانت القضية المطروحة هي: هل هناك علاقة بين العبقرية والجنون؟ هل لا بد أن يكون العبقري مجنونًا؟!

وانتهى المجلس بقرار يؤكد: أن العبقري لا بد أن يكون مجنونًا!!

ولما هموا بالانصراف قال لهم الفلاح البسيط وكان أمثلهم طريقةً هَبُوا أن العبقري مجنون. . . فهل يضير الجنونَ أنه أفرز العبقرية؟!

أبدا. . ألم تروا إلى المحارة التي تغوصون وراءها في البحر. . لو لم يصبها خلل. . لما أفرزت اللؤلؤة المستكنة فيها!!

وبُهِتَ الذين غاصوا في الكتب . . لأنهم لم يغوصوا من قبل في البحر . . بحرِ الحياة.

إنَ حرفًا في قلبك خير من ألفٍ في كتابك. .

من أجل ذلك كان الفلاح أمثلهم طريقة!!

أما بعد. . فما أكثر ما يشعر المخلصون بالاغتراب . . حتى وهم بين أهليهم وذويهم. .

وما يزال الشاعرون بالغربة يشكون إلى الله ظلم الإنسان . . ذلك الإنسان الذي لا يرحم . . ولا يريد لرحمة ربنا أن تنزل!

ولكن الآية الكريمة تظل عزاء لهم وسلوى: فالحق (سبحانه و تعالى) يتكفل هو بالسخرية من دعاة الهزيمة. . جزاءً من جنس عملهم:

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩]

ألا فليسعد المشتوم المظلوم بمعية الله (تعالى) . . ضد الذين يتربصون به . . ومرحبا بعداوة تجلب لك نصرة الحق (سبحانه) . . لقد صارت المحنة بهذه المعية منحة . . فلتشكر الله عليها وقل للذين يتهجمون ويشتمون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون! وردد مع الشاعر قوله :

عِداي لهم فضل عليّ ومنّة ... فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
همو بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



الشكر.. هذه القيمة الباقية

تمهيد:

النفس الإنسانية مجبولة على حب من أحسن إليها.. لكنها ليست مطبوعة على شكره!

ومن أجل ذلك.. كان لا بد من التركيز على فضيلة الشكر التي قد يتوانى المسلم في الوفاء بها.. حفاظًا على العروة الوثقى.. التي تربط على القلوب.. ولقد كان الجنّ أعرف بقيمة الشكر من الإنس.. وقد ظهر ذلك عند سماعهم لسورة الرحمن.. والتي كانوا يقولون عند كل نعمة ذكرتها.. ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.. وجدير بالإنس أن يكونوا كذلك.. وهو ما نحاول توضيحه في هذه العجالة.

معنى الشكر:

تقول اللغة:

شكِرت الدابة: سمِنت. وظهر عليها أثر العلف. والسمن هنا ليس راجعًا إلى كثرة العلف.. وإنما هو راجع إلى سلامة الأجهزة ومن هنا قيل: الشكور من الحيوان هو: ما يكفيه العلف القليل.

فإذا انتقلنا إلى «مملكة الإنسان» ظل الشكر محتفظًا بمعناه اللغوي وهو: الزيادة والنماء.. وسلامة الباطن من العوائق.

جهود العلماء:

ولكن علماءنا الكرام.. تدخلوا فقننوا معنى الشكر.. كما هو في دنيا الناس، قالوا: الشكر: أن تكون طفيليًا.. بمعنى: أن ترى نفسك

غير أهل للنعمة.. فلا تستحقها.

وقيل هو: رؤية المنعم.. لا رؤية النعمة. يعني: ينبغي ألا تحجبك النعمة عن المنعم (سبحانه وتعالى). وكمال الشكر هو: رؤيتهما معًا: المنعم (سبحانه) والنعمة.

لكن.. ينبغي ألا يطول وقوفك أمام النعمة إلى الحد الذي ينسيك المنعم (سبحانه وتعالى) وإنما.. تأملها.. لأنها سبيلك إلى شكر المنعم (تعالى).

أي بالقدر الذي يزكّي إحساسك بالمنعم (سبحانه وتعالى).. فهي وسيلة. وليست غاية «لأن شكره (تعالى) بحسب شهود النعمة... وكلما كان شهودها أتم كان الشكر أكمل..

والله (تعالى) يحب من عبده:

أ ـ أن يشهد نعَمهُ.

ب ـ ويعترف بها.

جـ ـ ويحبه عليها.

أما إذا غاب عن شهودها.. ثم نسيَها خف شكره عليها.. وقد يضيع الشكر.. كما في موقف قارون».

وإذن فالشكر يعني:

النماء.. والزيادة.. والقناعة.. فهو مجموعة من القيم تجعله يتصدر قائمة الفضائل الإنسانية.. ليكون أعلى مستويات العبادة:

أ ـ فهو إحساس بالنعمة حادٌّ تدرك به عظمتها.. وهذه معرفة..

ب ـ وقبل هذا.. فهو اعتراف بالمنعم (سبحانه).. ثناء..

جـ ـ ثم تسخيرها فيما خلقت له.. وفاء.

د ـ وما يترتب على ذلك كله من حب العبد له (سبحانه وتعالى).. والأنس بعبادته.. حتى كان من دعائه: اللهم! لا تجعلنا ممن تحجبه الصورة عن المصوِّر.. ولا النعمة عن المنعم.

من الشاكر؟

هو من يشكر على الموجود... أي: على العطاء..

أما الشكور: فهو من يشكر على المفقود على المنع.. وعلى البلاء.

يقول (عز وجل): ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. لم يقل شكوراً: لأن العبد مهما عبد ربه (تعالى).. فلن يكون شكوراً.. بل مجرد: شاكرًا!

أما التعبير بـ﴿كَفُورًا﴾.. وهي من صيغ المبالغة... فلأنه كفور.. ولو كانت معصيته في نظره صغيرة.. لأنه يعصى أعظم العظماء ومن خلقه فسواه.

مثل عليا:

وقد كان هناك صالحون من عباد الله.. أدركوا أنهم مهما ذكروا أو شكروا.. فلن يصلوا إلى قمة الشكر العليا: ومنهم يونس بن عبيد (رحمه الله): قيل له يومًا: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في نعمتين: لا أدري أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله (تعالى) عليَّ... فلا يعيِّرني بها أحد. ومودة قذفها الله في قلوب العباد.. لا يبلغها عملي: فلا أدري أيتهما أشكره (سبحانه): على قبيح ما ستر؟ أم على جميل ما يسّر؟!!

وقد كان هذا العجز عن الشكر: سمة المؤمن المدرك حقًا قيمة النعمة.. حتى قال بعضهم: يارب كيف أشكرك؟ وأنت ترزقني النعمة.. ثم ترزقني شكرها .. ثم تزيدني؟!!

من صور الشكر

ومن صور الشكر:

ظهور أثر النعمة على العبد: «**فإن الله (تعالى) يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**». [رواه الترمذي وحسنه]

والأثر المطلوب إظهاره هو:

أ ـ التحدث بها.

ب ـ استعمالها فيما خلقت له..

لكن التحدث بالنعمة لا بد أن يأخذ صورته الإسلامية.. فلا يكون افتخارًا .. بل اعتبارًا وتقديرًا..

مثال:

كان الشيخ يفتتح درسه بقوله لتلاميذه: صليت البارحة كذا.. وعملت من صور البر كذا وكذا.. وكان الشباب المتحمس ينكر على الشيخ ذلك، قائلين: مثلك لا يقول هذا.. وكان يرد عليهم قائلاً: (سبحان الله)!! يقول (تعالى): ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وأنتم تقولون: لا تحدِّث بنعم الله!! وتنبَّه التلاميذ هنا إلى المعنى الدقيق الذي ألمح إليه الشيخ وهو: لا بأس من التحدث بنعمة الله.. اعتزازًا بها واعترافًا.. يلغي تدبير الإنسان في تحصيلها.. وهي إلى من تفضل بها وليس لنا إلا أن نعلنها: مغالاة بها.. وتنويهًا.

وقد كان هناك لهؤلاء التلاميذ مدرسة تلح في إخفاء النعمة زهدًا وورعًا.. ومنهم ذلك الذي قال للشاذلي: تلبس جبة.. بألف درهم..

ثم تشرب الماء البارد؟!! فما كان جواب الشيخ إلا أن قال:

جبتي تقول للناس: أنا في غنى عنكم!

أما جبتك المرقعة.. فهي تقول لهم: لله.. يا محسنين!!

وعندما أشرب الماء البارد.. فإن كل خلية في جسمي تشكر الله (تعالى).. أما أنت فتشرب الماء الدافئ.. فإذا بك تتجرعه فلا تحس بمتعته.. أما أنا فأرتشفه.. ومع كل رشفة أذكر المنعم المتفضل (سبحانه وتعالى)!!

وقد كان من فقه الشيخ أن ينبه الإحساس إلى نعمة قد لا يلتفت إليها بعض المخلصين وهي نعمة الإرواء.. صادرًا في ذلك عما روي من أن ذلك من أهم ما يُسأل عنه المسلم يوم القيامة:

«ألم نُصحّ لك جسمك. ونروِّك من الماء البارد».

[الترمذي، وصححه والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا]

ومن صيغ الشكر:

اللهم أنا الصغير الذي ربيته.. فلك الحمد.

وأنا الضعيف الذي قويته.. فلك الحمد.

وأنا الفقير الذي أغنيته.. فلك الحمد.

وأنا العزب الذي زوجته.. فلك الحمد.

وأنا المريض الذي شفيته.. فلك الحمد.

وأنا العاري الذي كسوته.. فلك الحمد.

وأنا الصعلوك الذي موّلته.. فلك الحمد.

وأنا الساغب الذي أسعفته.. فلك الحمد.

وأنا المسافر الذي صاحبته.. فلك الحمد.

وأنا الغائب الذي رددته.. فلك الحمـــد.
وأنا الراجل الذي حملته.. فـلك الحمد.
وأنا الداعي الذي أجبته.. فـلك الحمـــد.
ربنا لك الحمد.. حمدًا كثيرًا.

وهذا التفصيل في الدعاء له ما يسوغه:

فهو استجابة للأمر: ألظ بالدعاء... دُمَ على الإلحاح فـيه.. ومن طرق الباب.. سـيدخل يومًا.. الزم الباب لا تفـارقه.. ثم أَلِظَّ في الدعاء بيا ذا الجلال والإكرام.. وهذا هو طريق الوصول.. الذي لن يتم بالتفلسف.. وإنما بالخـضوع.. إن الذكي مخدوع بعـقله.. والعقل وإن وصل بك إلى باب السلطان، لكنه لن يدخل بك إليه.. في قصره!

ثم هو تذكير بهذه النعم التي عددها.. لعل الله (تعالىٰ) أن يذكِّرنا بها.. لنذْكره (تعالىٰ) بدوام الثناء عليه.

وصيغة الحمد:

قل عند الشكر:

الحمد لله.. وهي أصدق من: نحمدك اللهم. لأن قولك نحمد.. كأنك حـمِدت فعلاً وانتـهت مهمـتك.. ولا يجوز منك ذلك.. لأنك مهما حمِدت.. فلن توفي المنعم (سبحانه) حق نعمة واحدة.

أما الحمد لله فهي:

١ ـ الصـيغـة التي يجب الالتـزام بهـا، كمـا وردت.. ويجب أن نتعلمها.

٢ ـ وهي تفيد أن الحمد كله لله (تعالىٰ).

التحريض
على التسلح بقيمة الشكر

وردت مادة الشكر في القرآن الكريم إحدى وسبعين مرة.. والتكرار نوع من التأكيد.. الذي يثبِّت أركان المؤكَّد.. حتى يظل ماثلاً في بؤرة الشعور..

ومن بين ما ذكرته الآيات الكريمة.. قوله(تعالى): ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، والآية الكريمة تحرض على الشكر.. من حيث إنه (تعالى):

شكور.. يحب أهل الشكر..

حليم.. يحب الحلماء..

ستِّير.. يحب أهل الستر..

ثم يقول (عز وجل): ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] يشكر على الطاعة.. وإن قلت.. ويغفر الجناية.. وإن جلت.. إلى الحد الذي لو عمل فيه الكافر عمل خير.. ويشكره الله (تعالى).. ولكن في الدنيا فحسب.

ونتأمل هنا تعدد صيغ الشكر:

فمرة يقول (تعالى): شكور.. ومرة يقول (عز وجل): شاكر..

وهذا التنوع دليل رحابة هذا الشكر الذي كان رحمة يتقلب في فجاجها المسلم.. وقد يتضح المعنى لو تأملنا تنوع مفردات «المغفرة» في القرآن الكريم. لنعلم أن شكره (تعالى) كمغفرته.. مع الإنسان حيث

كان ... فحينما نتأمل خطابه (تعالىٰ) للخطاء، . . فكأنما يقول له:

عبدي:

إن كنت ظالمًا . . فأنا غافر.

إن كنت ظلومًا . . فأنا غفور.

إن كنت ظلاَّما . . فأنا غفار.

إذن . . فمغفرة الله (تعالىٰ) تلاحقك . . بل تحيط بك . . ومهما كان ذنبك عظيمًا فعفوه (تعالىٰ) أعظم . .﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... لا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر: ٥٣] فالله يغفر الذنوب . . مهما كانت أحجامها . . ويغفرها مهما كانت عددها . .

وقل مثل ذلك في الشكر الذي يؤكد للعبد:

أولاً: أن ما تعمله من الخير: جلَّ . . أو قل فهو مدخر لك . .

وثانيًا: أن الله (تعالىٰ) يعطي . . ومع ذلك يشكر . . فحري بالمخلوق أن يكون علىٰ صورة خالقه (سبحانه).

الشكر الشامل:

يقول الشاعر العربي:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي، ولساني، والضمير المحجبا

يريد الشاعر أن يقول لممدوحه: إن وجودي كله مرصود . . لخدمتك . . نظير ما قدمت من معروف . . امتلكت به عناصر وجودي المتمثلة في:

اليد. واللسان. والضمير.

وإذا كان هذا من حق المخلوق . . فكم يكون حق الخالق؟ إننا مطالبون بشكره (تعالىٰ) بكل جوارحنا . . وإلا . . فإن من شكره (تعالىٰ)

باللسان فقط.. ولم يشكره (عز وجل) بكل أعضائه.. كان كمن أخذ بطرف ثوب.. ثم لم يلبسه! فما ينفعه ذلك من الحر والبرد. والثلج والمطر.

ومن شكر العينين:

إذا رأيت بهما خيرًا.. أعلنته..

وإذا رأيت بهما شرًا.. سترته..

ومن شكر الأذنين:

إذا سمعت بهما خيرًا.. وعيته..

وإذا سمعت شرًا.. دفعته.

ومما يؤكد أن الشكر شامل للعقول والعمل قوله (تعالى): ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. فالشكر بنص الآية الكريمة عمل.. ولأن العمل شاق على النفس فقد كان الشاكرون قليلاً..

الشكر في حياة الصالحين:

سليمان (عليه السلام):

لقد دعا ربه (عز وجل) فقال ما حكاه القرآن عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ولاحظ أنه قدم طلب المغفرة على طلب الملك.. فهو يطرق باب الوهاب منكسرًا.. خاشعًا.. خاضعًا.. جاعلاً من مغفرة الذنب سبيلاً إلى ملك يصادف قلبًا خاليًا من الذنوب.. فيتمكن.

فلما أعطاه الله (تعالى) سؤله.. أحس بعظم النعمة.. فطلب من الله (تعالى) أن يعينه على النهوض بشكرها..

التعاون على ترسيخ قيمة الشكر

كانوا يتعاونون على البر والتقوى.. ومن صور هذا التعاون: أن كل واحد كان يسأل أخاه وصديقه عن حاله.. حتى يقول هذا الأخ أو ذلك الصديق: الحمد لله.

فيستفيد بهذا الحمد نعمة جديدة هي: الشكر والإقرار بالحمد للمنعم المتفضل وقد جعلوا قيمة الشكر.

وقد جعلوا قيمة الشكر بذلك الفهم.. جعلوها سباق في الفضل.. لا في مضمار الدنيا.

أجل النعم:

يقول الشاعر العربي:

نعم الإله على العباد كثيرة   وأجلهن: نجابة الأولاد

ومن هؤلاء النجباء: ذلك الغلام الذي كان الخليفة يزور والده في بيتهم. فسأل الخليفة الغلام قائلاً: بيتكم.. أم بيتي.. أيهما أجمل؟

فقال الفتى: الأجمل: بيت الخليفة إذا كان فيه.. وبيتنا.. إذا كان فيه!

ويالسعادة والد بولده الذي كان أجل نعمة الله عليه.. وإنه لو مات الآن.. لمات قرير العين.. من حيث يخلف من بعده من كان امتداد حياته..

وإذا كانت الأشياء تتمايز بأضدادها.. فإنا نذكر ذلك الوالد الذي نكب في ولده نكبة ظهرت حين كلفه بشراء حبل طوله سبعون ذراعًا.. وسأله ولده قائلاً: في عرض كم يا والدي؟

قال: في عرض مصيبتي فيك يا ولدي!

اللهم اجعلني لك ذكارًا . .
واجعلني لك . . شكارًا . .

واقعية الصالحين

كان الصالحون من أمتنا يوقنون بأن نعم الله (تعالىٰ) فيما زواه عنا من مباهج الدنيا . . خير مما بسطه الله (تعالىٰ) لنا منها . .

بدليل أنها لو كانت خيرًا لنا . . لأعطاها لرسوله (ﷺ) . . ولكنه سبحانه لم يعطها له . استهانة بها ومن ثمَّ . . لم يكن لعابهم يسيل وراء لعاعاتها . . والخير فيما اختاره الله (تعالىٰ) لهم . . وذلك قول أحدهم: خير لي أن أكون فيما رضيه لي ربي . .

وكان ابن أبي وقاص شاهد ذلك: فقد قيل له ـ وكان مستجاب الدعوة ـ لم لَمْ تسأل ربك شفاء عينك المريضة فقال: أوثر ما رضيه لي ربي . . على ما اشتهته نفسي!!

ماذا تقول عند رؤية المعوّق:

تقول:

الحمد لله الذي عافاني، وفضلني على كثير ممن خلق . . وكان ذلك شكرًا للنعمة . (ويقول ذلك سرًا حتىٰ لا يُحزن المعوَّق) إلا إذا كان فاسقًا . . فيجوز إسماعه إرادة ردعه .

وقد تقرأ هذا الخبر:

أخذ رجلاً صومالي زوجته وأولاده الستة إلىٰ قرية أخرىٰ بحثًا عن لقمة العيش . . فلم يصل إلىٰ تلك القرية إلا الوالد فقط . . لقد مات الكل في الطريق . . وحريّ بمن يقيم في أهله آمنًا . . أن يشكر نعمة الرزق والأمان . . التي قد تفقده الألفةُ . . الإحساس بهما .

التعاون على ترسيخ قيمة الشكر

كانوا يتعاونون على البر والتقوى.. ومن صور هذا التعاون: أن كل واحد كان يسأل أخاه وصديقه عن حاله.. حتى يقول هذا الأخ أو ذلك الصديق: الحمد لله.

فيستفيد بهذا الحمد نعمة جديدة هي: الشكر والإقرار بالحمد للمنعم المتفضل وقد جعلوا قيمة الشكر.

وقد جعلوا قيمة الشكر بذلك الفهم.. جعلوها سباق في الفضل.. لا في مضمار الدنيا.

أجل النعم:

يقول الشاعر العربي:

نعم الإله على العباد كثيرة   وأجلهن: نجابة الأولاد

ومن هؤلاء النجباء: ذلك الغلام الذي كان الخليفة يزور والده في بيتهم. فسأل الخليفة الغلام قائلاً: بيتكم.. أم بيتي.. أيهما أجمل؟

فقال الفتى: الأجمل: بيت الخليفة إذا كان فيه.. وبيتنا.. إذا كان فيه!

ويالسعادة والد بولده الذي كان أجل نعمة الله عليه.. وإنه لو مات الآن.. لمات قرير العين.. من حيث يخلف من بعده من كان امتداد حياته..

وإذا كانت الأشياء تتمايز بأضدادها.. فإنا نذكر ذلك الوالد الذي نكب في ولده نكبة ظهرت حين كلفه بشراء حبل طوله سبعون ذراعًا.. وسأله ولده قائلاً: في عرض كم يا والدي؟

قال: في عرض مصيبتي فيك يا ولدي!

وقد ذكروا أن أبا الأسود الدؤلي قال يومًا لولده: يا بني: إن ابن عمك يريد الزواج.. ويجب أن تحفظ خطبة. وتلقيها في هذه المناسبة. فظل الابن يومين يدرس خطبة.

فلما كان في اليوم الثالث قال له أبوه: ما فعلت؟ قال: قد حفظتها.. فقال له أبوه: ما هي؟ قال: اسمع: الحمد لله نحمده ونستعينه. ونتوكل عليه ونشهد أن لا إله إلا الله. وأن محمداً رسول الله. حي على الصلاة! حي على الفلاح.. فقال له أبوه: أمسك.. لا تُقم الصلاة.. فإني على غير وضوء!!

لقد كان أبو الأسود في طليعة العلماء النابغين الذين طبقت شهرتهم الآفاق.. لكن فشل الولد لم يترك للوالد شيئًا يبكي عليه.. وقد يملك الوالد مالاً.. وعلمًا.. وجاهًا.. وهي ثروة لا شك عظيمة.. ولكننا لو طرحنا منها نجابة الأولاد.. لما تحصل شيء في الغرابيل!!

الأحق بشكرنا:

والأحق بشكرنا هو الله (تعالى): ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾[لقمان: ١٤].

لقد تكفل (سبحانه) بأرزاقنا.. وقبل أن ننزل ضيوفًا على هذا الوجود.. حيث خلق الأرض.. وقدر فيها أقواتها: إنه (تعالى) يتفضل بلا عوض ويمنح بغير سؤال. ومهما عصى العبد.. فهو (عز وجل) رازقه في كل الأحوال.

إنه (سبحانه) صاحب الفضل في العطاء.. وهو العدل في البلاء.

وقد تنبه صالحونا إلى ذلك.. ومنهم ذلك الشيخ الذي قال لتلميذه حين شكره: لا تشكرني ولكن اشكر من جاءت النعمة من قِبله (سبحانه وتعالى).

شكر الوالدين:

ويأخذ شكر الوالدين أهميته القصوى حين قرن الحق (تعالى) شكر الوالدين بشكره (سبحانه)﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [لقمان: ١٤].

ولأن شكر الوالدين مظنة التقصير أو الإهمال. فإن الحق (تعالى) يحذر المقصرين والمهملين بهذا التذييل الرهيب:﴿ **إِلَيَّ الْمَصِير** ﴾.

شكر الناس جميعًا:

الشكر بعد ذلك حق الناس جميعًا. . من أحسن إليك منهم.

«**فمن لا يشكر الناس.. لا يشكر الله**» ، «وأشكر الناس لله. . أشكرهم للناس»، وتأمل كيف كان شكرك لله (تعالى) لا يتم كمالاً إلا إذا كان عن طريق عياله (سبحانه) وهم الذين أحسنوا إليك. . والمهم في شرع الله (تعالى) أن ترسخ في كيانك كلمة الشكر وفاءً لمن أحسن إليك. . يعينك على ذلك ما تعلمه من أن الله (تعالى) ستِّير يحب الستر. . شكور. . يحب أهل الشكر.

سهولة المهمة:

ولا يكلفك الإسلام بالشكر شططا. . فأنت مطالب به على قدر سعتك. . قال المهاجرون. . يا رسول الله: ذهب المهاجرون بالأجر كله: فقال (ﷺ): «**لا.. ما دعوتم الله لهم.. وأثنيتم عليهم تلحقونهم..**»

ويعني ذلك:

(أن من أُعْطِيَ شيئًا، فوجد عنده ما يقابل الإحسان بالإحسان. . فليَجز به. ومن لم يجد. . فليُثن به. . فإن أثنى به. . فقد شكره. . وإن كتم فقد كفره).

حتى المجوسي:

وحتى المجوسي له في أعناقنا حق الشكر. لو أنه أحسن إلينا.. ولا تسقط العقيدة الفاسدة هذا الحق.. فنحن مكلفون بشكره في حال إحسانه إلينا.. شريطة أن نقول له فقط: شكرًا.. ولا تدعو له.. أما المسلم فنقول له: **جزاك الله خيراً**



بر الوالدين
هذا القاسم المشترك الأعظم

تمهيد:

يأخذ البر في الإسلام مداه الواسع.. حين لا ينحصر في بر الولد والديه.. وإنما هو قبل ذلك أن يبر الوالدان ولدهما.. لتكتمل الدائرة.. وتتم النعمة..

وإذا كان هناك في الناس من نسميهم «اجتماعيين» قادرين على أن يشتروا العبيد بأموالهم.. فهناك منهم طراز فريد قادر على أن يشتري الأحرار بحسن معاملتهم.. وفي طليعتهم آباء صدق: غرسوا «فسيلة» البر في قلوب أولادهم.. فصارت من بعد شجرة ضخمة أُكلها دائم وظلها.

أهمية البر:

يقول (تعالى) ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقد كان من الممكن أن يقال هنا: [ولا تسبوا الوالدين] مثلاً.. ولكن السياق يطوي هذا.. لأن الإساءة غير واردة.. ولا متصورة بالمرة..

وكذلك الأمر بالإحسان لم يرد هنا: لأن هذا الإحسان مقرر في الفطرة السوية التي تبذله تلقائيًا.. وبلا تكلف.. ومن ثمَّ فلا حاجة إلى الأمر به.. ثقة بطبيعة الفطرة..

فالإحسان إلى الوالدين مقررًا ابتداءً.. لكن المطلوب هو قمته.. هو ذروته.. فلا ندخر وسعًا في الإحسان إلى الوالدين.

بر الآباء بأولادهم

وقبل الحديث عن بر الآباء بأبنائهم.. نذكر طرفًا من بر الأحفاد.. هذا البر الذي كان نهرًا فياضًا بالحنان.. حين لم يتوقف مدّه عند الأولاد.. ولكنه تجاوزهم إلى الأحفاد..

وأسوتنا في ذلك هو: رسول الله (ﷺ): فعن أبي قتادة قال: «**خرج علينا النبي (ﷺ) وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى.. فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها**»[1].

وإنك لتلاحظ من رحمته (ﷺ) وشفقته بحفيدته.. أن اهتمامه بالصلاة التي كان يركز فيها كل اهتمامه.. لم ينسه حق الصغيرة في الحنان. ولقد كان الموقف صعبًا.. يحتار فيه الإنسان بين عقله وقلبه: عقله الذي يفرض عليه أن يقبل على صلاته بكل كيانه.. من حيث لا ثواب له على صلاته إلا ما عقله منها.. ثم قلبه الموصول بالصغيرة التي هي بضعة منه؟

ولقد كان من توفيق الله (تعالى) أن يستجيب لعقله وقلبه معًا: كان إذا ركع.. يخشى عليها السقوط على الأرض.. فيتلطف بها.. فيضعها.. وكأنها كانت ـ لشدة تعلقها به ـ لا تصبر في الأرض.. فينجزع لمفارقتها.. فيحتال ليحملها إذا قام..

لقد كان (ﷺ) بين أمرين:

١ ـ أن يحافظ على المبالغة في الخشوع.

(١) «فتح الباري» جـ ١٠ ـ باب رحمة الولد.

٢ ـ وأن يراعي خاطر حفيدته.. المتعلقة به.. فقدّم الثاني.. على نحو لم يبطل الأول.

وكان (ﷺ) بولده إبراهيم باراً حفيًا... فعن أنس قال: «**أخذ النبي (ﷺ) إبراهيم: فقبّله وشمه**» (١).

وقد أخذ العلماء من ذلك:

جواز تقبيل الولد وفي كل عضو منه. فهو ريحان.. طيب الرائحة.

وكذلك يجوز تقبيل الكبير ـ عند أكثر العلماء ـ ما لم يكن عورة.

وكان (ﷺ) يقبّل فاطمة. وكان أبو بكر (رضي الله عنه) يقبّل عائشة.

وهكذا كانت الرحمة بالصغار صورة من صور البر بهم.. وهو طريق لاحب: لا يضل سالكه.. ولا يهتدي تاركه.

ولكن ناسًا.. جهلوا فلم يفهموا ذلك الدرس.. فكان للرسول معهم موقف لفت أنظارهم فيه إلى أهمية أن يبر الآباء أبناءهم... وإذا كانوا يتنافسون في توفير الطعام.. غذاء لأجسامهم.. فأجدر بهم أن يجعلوا من الرحمة غذاء لأنفسهم.

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: جاء أعرابي إلى النبي (ﷺ) فقال: تقبّلون الصبيان؟!!.. فما نقبلهم!!.. فقال النبي (ﷺ): «**أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**» (٢).

ولقد كان الدرس قاسيًا.. ومن الحكمة أن يكون كذلك مع رجل مردت قبيلته على القسوة في معاملة بنيها.. وحرمانهم من حقهم

---

(١) «فتح الباري» جـ ١٠ ـ باب رحمة الولد.

(٢) «فتح الباري» جـ ١٠ ـ كتاب الأدب.

المشروع في الحنان.. والذي لا يصير سويًا إلا به.

يروي أبو هريرة (رضي الله عنه) قال: قبّل رسول الله (ﷺ) الحسن بن عليّ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا: فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد.. ما قبَّلت منهم أحدًا.. فنظر إليه رسول الله (ﷺ) ثم قال: «**من لا يرحم لا يرحم**»(١).

ولقد كان جواب الرسول (ﷺ) هنا أخف لهجة من جوابه للأعرابي الآنف الذكر.. فالأقرع من الناحية الاجتماعية: زعيم قومه، ومن الناحية النفسية: من المؤلفة قلوبهم.. فإيمانه قلق غير ثابت.. ومن أجل ذلك تلطف الرسول في رده الذي كان عامًا.. ولم يكن مباشرًا.. لقد نظر إليه أولاً نظرة يفهم منها رفضه لما قال.. ثم مرت فترة صمت.. جاءت بعدها الموعظة عامة.. لا تصطدم الإحساس.. وقد استمر الأقرع مسلمًا.. بل وحسن إسلامه.

في غزوة حنين:

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: قدم على النبي (ﷺ) سبي.. فإذا امرأة من السبي تحلُب ثديها: تسقي... إذا وجدت صبيًا في السبي.. أخذته فألصقته ببطنها.. وأرضعته.

فقال لنا النبي (ﷺ): «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا.. وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال: «**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**».

كانت هذه المرأة قد فقدت صبيها وتضررت باجتماع اللبن في ثديها.. فكانت إذا وجدت صبيًا أرضعته.. ليخفف عنها..

---

(١) «فتح الباري» نفس الموضوع. «يجوز في: يُرحم: ضم الميم أو تسكينها على إرادة الشرط».

وفي الموقف دروس:

ومن دروس في العقيدة:

١ ـ أن كل إنسان يعلق أمره بالله وحده.

٢ ـ وأن كل من فيه رحمة يقصد لأجلها.. فالله (تعالىٰ) أرحم منه.

ومن دروس الأخلاق:

أن الحياة بلا مبادئ تتحول إلىٰ مسبعة.. إلىٰ غابة.. والناس فيها وحوش ضارية: أعني تصير حياتهم في موت غيرهم!!

ولقد كانت قيمة الإنسان بارزة في هذا الموقف.. الذي لم تتخذ فيه هذه الأم غرضًا.. يتلهىٰ به.. وإنما كان هناك إشفاق عليها.. وتقدير لغريزة الأمومة فيها..

ومن الناحية التشريعية:

جواز ارتكاب أخف الضررين ـ كما يقرر العلماد هنا ـ لأنه (ﷺ) لم ينه هذه المرأة عن إرضاع الأطفال الذين أرضعتهم مع احتمال أن يكبر بعضهم فيتزوج بعض من أرضعته المرأة معه.

ولكن: لما كانت حالة الإرضاع ناجزة.. وخشية المحرمية متوهمة.. جاز ذلك الإرضاع. ولولا خشية هلاكها.. ما تركها ترضعهم.

وإذن: فلا بأس من أن ترضع الكافرة صبيًا مسلمًا.

بر الأبناء:

ولقد كان طبعيًا أن يرد الأبناء جميل آبائهم وأمهاتهم إليهم برًا ووفاءً:

قال المأمون: «لم أجد أحدًا أبر بأبيه.. من الفضل بن يحيى: كان أبوه لا يتوضأ إلا بماء ساخن. فمنعه السجان من الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه من النوم.. قام ابنه الفضل إلى إناء من نحاس مملوء بماء.. فأدناه من المصباح.. حتى استيقظ والده.. فتوضأ بالماء الساخن»[1].

والمرأة على نفس الطريق:

قال يحيى بن كثير: لما قدم أبو موسى الأشعري، وأبو عامر على رسول الله (ﷺ) فبايعوا وأسلموا. قال: «ما فعلت امرأة منكم تدعى كذا وكذا؟ قالوا: تركناها في أهلها. قال: «فإنه قد غُفر لها» قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: ببرها والدتها. قال: كانت لها أم عجوز كبيرة.. فجاءهم النذير.. أن العدو يريد أن يغير عليكم، فجعلت تحملها على ظهرها، فإذا أعيت، وضعتها، ثم ألزقت بطنها ببعض أمها، وجعلت رجليها تحت رجليّ أمها من الرمضاء.. حتى نجت»[2].

من الردود الجامعة المانعة:

قال رجل لليث بن سعد:

إن أبي ببلاد السودان. وقد كتب إليّ أن أذهب إليه، فمنعتني أمي.
فقال له الليث: أطع أباك، ولا تعص أمك[3].

ومن حكمة الرد هنا:

الاحتفاظ بقيمة البر للوالدين كليهما... فإذا كان الحق مع الوالد.. لكن ذلك لا يمنح الابن حق الجفاء في خطاب أمه.. وعليه أن يرفق

(١) «حقوق الآباء على الأبناء» (٧٢).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه».
(٣) «نزهة المجالس ومنتخب النفائس» (١٩٦).

بقلبها المتعلق به.. حتى يكسب رضاء الاثنين معًا.

من بر الأمهات:

عن أبي يزيد البسطامي قال: طلبت أمي ماء.. فجئتها به، فوجدتها نائمة، فقمت أنتظر يقظتها.. فلما استيقظت.. قالت: أين الماء؟ فأعطيتها الكوز.. وكان قد سال الماء على إصبعي.. فجمد عليها الماء من شدة البرد.. فلما أخذت الكوز.. انسلخ جلد إصبعي.. فسال الدم.. فقالت: ما هذا؟ فأخبرتها.. فقالت: اللهم! إني راضية عنه.. فارض عنه[1].

حق الأم:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك» [2].

تمهيد:

كان الصالحون يقولون: يكفي من الدعاء مع البر.. ما يكفي الطعام من الملح: فالبر هو الأصل.. فهو دعاء السرائر. وروح الإيمان.. فإذا توفر.. فقليل من الدعاء يكفي.

إن الولد ناظر بطبيعته إلى ذريته.. إلى حياته المقبلة.. وفي غمرة هذا الاندفاع قد ينسى أصله: (أمه.. وأباه..) من أجل ذلك يجيء التركيز على قيمة البر.. حتى يظل الود قائمًا.. تتواصل به الأجيال..

(١) «نزهة المجالس» (١٩٦).
(٢) رواه البخاري في «كتاب الأدب» (٥٩٧١).

ومن هنا قال عليّ (ﷺ) محذراً من التفريط فيها: لو علم الله (تعالى) أقل من «أف» لحرّمه.. فليعق العاق ما شاء.. فلن يدخل الجنة.. وليبر البار ما شاء.. فلن يدخل النار...

إن الوالدين هما: جنتك.. ونارك.. فاختر لنفسك ما يحلو. وإذا كانت النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.. فإن نصيب الوالدين من الحب أوفى.. يحملنا على ذلك أمران: الطبع.. والشرع وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

الأبناء عند حسن الظن بهم:

وهذا رجل يفد إليه (ﷺ): يحمل همًا من هموم أمته.. متعطشًا رلى معرفة دوره إزاء الناس من حوله فيخبره (ﷺ) بحق والديه عليه أولاً.. راصدًا للأم نصيبها الأوفى من الحب والاحترام.. لماذا؟

قال ابن بطال: في «فتح الباري» (جـ١٠ /٤٠٢):

«مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر». قال: وكان ذلك: بصعوبة الحمل.

ثم الوضع.

ثم الرضاع.

فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية. وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله (تعالى): ﴿ووصَّيْنا الإنسانَ بوالديْه حملتْهُ أُمُّهُ وهْنًا علىٰ وهْنٍ وفصالُهُ في عامين أن اشْكُرْ لي ولوالدَيْك إليَّ الْمصيرُ﴾ [لقمان: ١٤] فسوى بينهما في الوصاية. وخص الأم؛ بالأمور الثلاثة.

التحذير من العقوق:

ومن العقوق أن يكون الولد سببًا في سب أبيه وأمه.

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه.. فيسب أمه»[1].

والحديث الشريف يقرر ما يلي:

١ ـ حق الوالدين في التوقير.

٢ ـ مسؤولية مباشرة الذنب.. والتسبب فيه.

٣ ـ وإذا كان غير المباشر مذنبًا.. فكيف بالمباشر؟!!

٤ ـ وإذا كان الإيذاء بالقول هكذا جرمًا عظيمًا.. فكيف إذا كان الإيذاء بالفعل؟!!

٥ ـ تطهير المجتمع من البذاء والجفاء.

٦ ـ التحذير من كل ما يتهاون الناس فيه.. ويحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

وكانت الأمهات جديرات بهذا التكريم:

والتاريخ خير شاهد:

أ ـ قال ابن السماك:

كان رجل يجلس إلي.. فبلغني أنه نزل به الموت. وإذا أم عجوز كبيرة.. فجعلت تنظر إليه حتى غمض. وغصب. وسجى.. فقالت: (رحمك الله) يا بني: لقد كنت بنا بارًا.. وعلينا شفوقًا: رزقنا الله عليك الصبر: فقد كنت تطيل القيام.. وتكثر الصيام.. فلا حرمك الله ما أمّلت من رحمته.. وأحسن عنك العزاء.. ثم نظرت إليّ وقالت: لو

(١) «فتح الباري» جـ ١٠ (٥٩٧٣).

بقي أحد.. لبقي رسول الله (ﷺ) لأمته[١].

روي أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن أمي هرمت عندي: فإني أطعمها بيدي.. وأسقيها بيدي.. وأضعها وأحملها على عاتقي.. هل جازيتها حقها؟: قال: «**لا .. ولا واحداً من مائة**» قال: ولم يا رسول الله؟ قال: «**لأنها خدمتك في وقت ضعفك.. مريدة حياتك.. وأنت تخدمها.. مريداً موتها.. ولكنك قد أحسنت**»[٢].

الأم تدافع عن حقها المهضوم:

تخاصم أبو الأسود الدؤلي إلى امرأته أمام القاضي.. على غلامها: أيهما أحق به: فقالت المرأة: أنا أحق به لأنني حملته تسعة أشهر.. ثم وضعته.. ثم أرضعته.. إلى أن ترعرع بين أحضاني.. كما تراه مراهقًا.

فقال أبو الأسود: أيها القاضي: حملتُه قبل أن تحمله.. ووضعته .. قبل أن تضعه فإن كان لها بعض الحق فيه.. فلي الحق كله أو جله.

فقال القاضي: أجيبي أيتها المرأة عن دفاع زوجك. فقالت: لئن حمله خفًا.. فقد حملته ثقلاً. ولئن وضعه شهوة.. فقد وضعته كرهًا.
فنظر القاضي لأبي الأسود وقال له: ادفع إلى المرأة غلامها: ودَعْني من سجعك[٣].

قيمة البر في ذرية الفاروق:

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما): أن رجلاً من الأعراب.. لقيه بطريق

(١) «حقوق الآباء» (٧١).
(٢) «شرح شرعة الإسلام» (٤٧٤).
(٣) «حقوق الآباء على الأبناء» طه عفيفي (٢٩).

مكة.. فسلم عليه ابن عمر وحمله على حمار كان يركبه.. وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله: إنهم الأعراب.. وهم يرضون باليسير. فقال ابن عمر: إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب. وإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**إن أبر البر: صلة الولد أهل ود أبيه**».

ومن بعده: كان سالم بن عبد الله باراً بوالده فكان أحيانًا يروي عن أبيه ويقول: كان «عبد الله بن عمر»: لم يقل «أبي» لأن ذلك هضم لحقه..

فلم يكن عبد الله مجرد «رب أسرة» محدود المسؤولية.. ولكنه كان شخصية عالمية.. يتحدث عنها ولده سالم بما يفيد أنه لم يعد والد له.. وإنما هو ملك للناس جميعًا!

ويبقى حق الوالد محفوظًا:

شكا رجل أباه إلى النبي (ﷺ) وقال له إنه أخذ مالي، فاستدعاه النبي (ﷺ).. فإذا هو شيخ يتوكأ على عصاه يخاطب نفسه بكلام غير مسموع.

فنزل جبريل على النبي (ﷺ) يأمره أن يسأل الرجل عما حدثتْ به نفسه قبل أن ينظر في شكوى ابنه، فلما سأله. قال الرجل: والله. لا يزيدنا بك إلا إيمانًا وتصديقًا. لقد قلت أناجي ابني:

غدوتك مولوداً وملتك يافعًا ... تعلُّ[1] بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسُّقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهراً أتململ

---

(١) عل يعُل: يشرب مرة بعد أخرى، ومنه العَلات أولاد الرجل من نسوة شتى.

كـأني أنا الطروح دونـك بالذي ... طرقت به دوني ... فـعـيني تمهل
تخاف الردىٰ نفـسي عليك وإنها ... لتـعلم أن المـوت وقت مـؤجل
فلمـا بلغت السن والغـاية التي ... إليـها مـدىٰ ما كنت فـيك أؤمل
جـعـلت جـزائي غلظـة وفظاظة ... كـأنك أنت المنعم المتـفـضل
فلـيـتك إذ لـم ترع حق أبـوتي ... فعـلت كما الجـار المجاور يفـعل
فـأوليتني حـق الجـوار ولم تكن ... عليّ بحـال دون مـوتك تبـخل

فلمـا سمع النـبي (ﷺ) قوله: اغـرورقت عـيناه بالدموع. وقـال الرجل مستطرداً: إن ابني كان ضعيفًا.. وأنا قوي، وفقيراً.. وأنا غني. فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي. واليوم: أصبحت ضعيفًا.. وهو قوي.. وفقيراً وهو غني.. ويبخل عليّ بماله. فبكىٰ النبي (ﷺ) وقال: «مـا من حجر ولا مـدر يسمع هذا.. إلا بكىٰ».. والتفت إلىٰ الولد وقال: «أنـت ومالك لأبيك»[1].



(١) «أحكام القــرآن» لابن العـربي (٣/ ١٢٠٠) ورواه ابن مــاجـة بلفظ قـريـب (٢/ ٧٦٩) «نيل الأوطار» (٦/ ١٤).

الرفق بالحيوان
بين القرآن والسنة

يقول الله (عز وجل): ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

تمهيد:

من حق كل أمة أن تدعو إلى كتابها.. وهو ما يحدث اليوم.. الذي نرى فيه ونسمع كل يوم جديداً.. يكشف عن إصرار غيرنا على أن تكون لهم الصدارة على حسابنا..

يتصورون الساحة الدولية رقعة «شطرنج» منفصلة الخانات ورموزها مثل الأحجار لكل واحد دور مرسوم. وأجل محتوم، وهم اللاعبون الذين يحاولون السيطرة.. وتوجيه دفة الحياة لحسابهم في كل المجالات.. يريدون احتكار المستقبل.. وخلف الضلوع هناك قلوب غاب عنها الإيمان فصارت مقابر.. وصار الجو معتمًا..

وفي الجو المعتم يصبح كل شيء ـ حتى الثوابت ـ قابلة للجدل..

ومن المجادلات التي يتحركون فيها.. مملكة الحيوان.. حين زعموا أنهم أرفق به منا.. ومن ثم فهم أكثر تحضراً.. وما يزالون يمضغون خبز الأوهام أو الأحلام.. عندما يكذبهم واقعهم المر.. هذا الواقع الشاهد بأنهم فعلاً يرفقون بالحيوان.. ولكنهم يقتلون الإنسان!!

فهم مع الحيوان: حمل وديع.. ومع الإنسان: ذئب شرس..

مع الحيوان: حمام ودود.. ومع الإنسان: صقر كاسر؟! ولكن

الأوهام لا تعيش طويلاً.. وسوف يسقطون كما سقطت روسيا التي تباهت يومًا بأنها أول من صنع سفينة للفضاء!!

وفي هذا الوقت الذي نسمع فيه.. كيف يباع الأطفال اللقطاء في أسواق النخاسة بثمن بخس دراهم معدودة.. على نحو يصفع وجه الإنسانية التي تدّعي الحضارة..

في هذا الوقت بالذات يكون من واجب الأمة الإسلامية أن تدعو كغيرها إلى كتابها.. إلى شريعتها.. نتملى آيات القرآن الكريم.. ونستوقف مشاهد السنّة المطهرة.. في مجال تكريم الحيوان.. تبصرة وذكرى.. تؤكد لهؤلاء الواهمين الحالمين أنهم ينزلون ساحة غير ساحتهم.. ويمتطون خيلاً غير خيلهم.. وعليهم أن يفسحوا الطريق للإسلام.. حتى يوقف نزيف الجسد الذبيح.. ويجف دموعًا يسيل بها قلب جريح.

وإلى رحاب القرآن الكريم والسنة المطهرة.. في محاولة لتجلية الوجه الحضاري لشريعتنا.. في مجال يكثر فيه ادعاء الأدعياء:

يقول الله (عز وجل): ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

مضيًا في مسلسل العناد طلب المشركون الخوارق شرطًا لإيمانهم.. وما كان الله ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء.. وهو (سبحانه) القائل: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]

ولكنه (تعالى) لم يشأ ذلك.. فلم يستجب لهم حيث لا مصلحة لهم في إجابة طلبهم هذا.. وجاءت هذه الآية الكريمة لافتة أنظارهم

بقوة إلىٰ أنه (تعالىٰ) يبين لهم ما فيه مصلحتهم. والتي منها ما ذكرته الآية الكريمة: فإذا كانت عناية الله (تعالىٰ) واصلة إلىٰ الحيوان الأعجم الذي جعله (تعالىٰ) أممًا لها خصائصها. ولها كذلك حقوقها ، فلا تصل إليكم؟

ويعني ذلك أن حكمته (تعالىٰ) اقتضت لفت أنظارهم إلىٰ آيات الله (تعالىٰ) في مملكة الحيوان.. وما يحتشد فيها من دلالات علىٰ باهر قدرته. وأحيانًا.. يكون من الحكمة توقف الحوار. ليكون الواقع الملموس بديلاً عن النص المسموع..

ذلك «بأن الأثر العملي الذي يأتي عن طريق العين. أعمق من الأثر الذي يأتي عن طريق الأذن.. والحق: أن العصب البصري أقوىٰ عدة مرات من العصب السمعي.. مما يعطينا سببًا قويًا للالتجاء إلىٰ حاسة البصر».

وهنا يفتح الحق (سبحانه) أبصارنا وبصائرنا علىٰ عالم الحيوان. إرادة رصد ما تشاهدون.. ثم فهمه: بالوقفة المتأنية. والتأمل الصافي. والتفكير العميق. ثم نستخلص من الحقائق في عالم الحيوان. ما نلقي به في المستنقع الآسن هناك.. حتىٰ يتحرك الضمير الراكد. ويتمزق السكون الذي يشبه العدم.. حين يطل الداعية بما يحتشد لديه من براهين وتجاريب.. ثم فطرة صافية.. يحبط الله (تعالىٰ) به الإعلام الكاذب الخاطئ.. فيحترق قنطار الخشب.. ويبقىٰ الدرهم الحلو آية بينة..

تأملات في الآية الكريمة:

من بين الدروس التي تطالعنا من الآية الكريمة:

أن الداعية عليه أن يكون رحيمًا بالمدعو: فليتجاوز الدليل الخفي..

إلى الدليل الظاهر.. ثم يتجاوز الظاهر.. إلى الأظهر.. وذلك مفهوم من قوله (تعالى) ﴿فِي الأَرْضِ﴾ فالآية هنا أرضية.. فهي في متناول الفهم لقربها.. أما آية السماء فهي لبعدها تحتاج إلى فطنة ودراية.. قد لا تتوفر لبعض المدعوين: فالسموات وما فيها من نيازك. ونجوم.. ورجوم.. كلها بعيدة عن المنال.. والأرض قريبة.. ومشاهد تنهمر على حواسنا.



وجه الشبه
بين الإنسان والحيوان

تقول الآية الكريمة: ﴿ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ يقول المفسرون في بيان هذه المثلية:

أمثالكم: (في أنا خلقناهم ولم يكونوا شيئًا.. وحفظنا جميع أحوالهم.. وقدرنا كل أرزاقهم.. وآجالهم.. وجعلنا لكم فيهم أحكامًا جددناها لكم.. وجعلنا لكل منهم أجلاً للموت لا يتعداه.. بعد أن فاوتنا بينهم في الحياة..

وللكل أجل في علمنا.. في البرزخ.. مثبت قبل أن نخلقهم لا ينقص ذرة.. ولا يزيد خردلة.. وجعلنا في هذه الحيوانات: ما هو أقوىٰ منكم.. وما هو أضعف.. وجعلناكم أقوىٰ من الجميع بالعقل.. ولو شئنا لجمعنا له بين قوة البدن والعقل.. وربما سلطنا الأضعف عليكم:

كالجراد.. والفأر.. والدود.. بما تعجز عنه عقولكم.. ولو شئنا لسلطنا عليكم من أضعفها خلقًا ـ كالبعوض ـ فأخذ بأنفاسكم ومنعكم القرار.. وأخرجكم من حركات الاختيار).

ويبقى أن تستشعر أن الحيوانات.. والطيور.. والهوام.. والدواب.. أمم أمثالنا:

أ ـ يشبه بعضها بعضًا

ب ـ يأنس بعضها إلىٰ بعض.

جـ ـ ويتوالد بعضها من بعض.

[illegible](1) (لولا أن الكلاب أمــة من الأمم لأمرت بقتلها).

وقد استشعر «سفيان بن عيينة» هذه المثلية فقال:

(ما في الأرض آدمي.. إلا وفيه شيء من بعض البهائم:

فمنهم من يقدم إقدام الأسد.

ومنهم من يعدو عدو الذئب.

ومنهم من ينبح نباح الكلاب.

ومنهم من ينطوس.. كفعل الطاووس.

ومنهم من يشبه الخنزير: فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب.. تركه.. وولغ في القيء! ومن الآدمــيين.. مَنْ إذا سمع خــمسين حكمــة.. لم يحفظ واحدة منها.. فإذا أخطأت مـرة واحدة.. حفظها.. ولم يجلس مجلسًا إلا رواها).

وهذه المثلية تفــرض على الإنسان احــترام كل دابة.. وكل طائر.. بالإضافة إلى أنهــا أمم مثلنا تسبح خالقــها (سبحانه).. شــاهدة بعظمته تردد معنا نفس النشيد العلوي: (سبحان الله).. (والحمد لله). وإذن.. فلها حق الجــوار.. الذي يتقاضان ألا نســيء معاملتهــا.. بل أن نحسن إليها إحسانا.. منطلقين من توجيه القرآن الكريم الذي حضنا على صيانة معنى الحياة.. حياة الإنسان.. أو حياة الحيوان.

بالإضافــة إلى أنها في خدمتنا.. ســخرها الله (تعالى) لنا تســخير يفرض علينا أن نرد إليــها الجميل.. وذلك مــا يشير إليه قــوله (تعالى):

(1) ج (٦/٣٤٣).

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨].

تأملات في الآيات الكريمة:

إن كل ما في الكون ـ والأنعام بالذات:

أولاً: هو نعمة تذكر فتشكر.

وثانياً: دليل على الوحدانية.

وهذه الأنعام دليل قوي عليها:

فقد خلقها الله (عز وجل) وسخرها للإنسان.. مع أن بعضها أكبر حجمًا.. وأشد منه قوة: ينتقل بها عبر المسافات الشاسعة البعيدة.. المرهقة.. والذاهبة بشق الطاقة.

كل أولئك داع إلى حسن التعامل معها.. طبق قوانين فصّلتها السنة المطهرة تفصيلاً على نحو غير مسبوق.

من دروس الموقف:

إنه إذا كانت لك «دراجة» من حديد.. فأنت تعنى بها: تصونها.. وتحفظها. فإذا كان ذلك شأن الجماد.. فكم يكون حق الحيوان الشاعر الحساس؟

وإذ تأخذ الغفلة بعض الناس فيظلمون الطير.. أو الحيوان.. من كل ما لا يملك الدفاع عن نفسه.. فإن رسول الله (ﷺ) يلفت أنظارنا إلى عمق مسؤولياتنا.. في مجال قد نتساهل فيه.. مؤكداً أن لهذه العجماوات حقوق تتقاضانا الوفاء بها.. من حيث كانت أممًا أمثالنا..

ونعمة من الله (تعالى) علينا.. فلا ينبغي أن نظلمها.. ولا نتجاوز فيها ما أمرنا به..

ومما أمرنا به:

١ ـ تغذيته وعدم إجاعته.

٢ ـ تجنب إرهاقه.

٣ ـ تسخيره لما خلق له.

٤ ـ ألا يعذب أو يمثل به.

التحذير من إجاعة الحيوان وإرهاقه:

روى الإمام أحمد [1] بسنده عن يعلى بن مرة الثقفي. قال: ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله (ﷺ): بينا نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يسنى عليه، فلما رآه البعير جرجر ووضع جرانه. فوقف عليه النبي (ﷺ)، فقال: «أين صاحب هذا البعير؟». فجاء.. فقال الرسول له: «بعنيه.» فقال: لا.. بل أهبه لك.. فقال: «لا.. بعنيه.» قال: لا.. بل نهبه لك. وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره. قال: «أما إذ ذكرت هذا من أمره. فإنه شكا كثرة العمل.. وقلة العلف.. فأحسنوا إليه».

وفي رواية أخرى عن أحمد:

أنه (ﷺ) دخل بستانًا لرجل من الأنصار. فإذا فيه جمل... فلما رأى النبي (ﷺ) جنّ. وذرفت عيناه. فأتاه رسول الله (ﷺ) فمسح دموعه. ثم قال: «من صاحب هذا الجمل؟» فقال صاحبه: أنا يا رسول الله. فقال (ﷺ): «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكى إليّ أنك تجيعه. وتدئبه» ـ تتعبه.

---

(١) ج (٤/ ١٧٢).

من أجل بعير هزيل ضئـيل. توقف موكب رأس الدولة. . إنقاذًا له مما يعـانيـه. . ومـا كان لمهـام الدولة العـظام أن تصرفـه عن أمـر يبـدو صغيرًا. . وهو عند الله عظيم. . فطعم العدل في الأمر الهين كطعمه في الأمر الجليل.

كان (ﷺ) رحـمة للعالمين. . الأمـر الذي أدركه البعـير. . فنهض ليقـتبس من هذه الرحمـة الشاملة الكاملة. والتي بدت في هذا التحـقيق السريع مع صاحبه. .

وأحس صاحب البعير بعـقدة الذنب. . التي رأى حَلَّها في أن يهبه للرسول (ﷺ). . مصرًا على هذه الهبة. . مقدرًا في ذلك الوقت. . بأن إرهاق البعـير راجع إلى تدني المسـتوى الاقـتصادي لـلأسرة. . والتي لا تستطيع شراء بعيرًا آخر يعينه.

وقد قبل (ﷺ) الاعتـذار. . بعد عتاب شديد اللهجـة. . تشير إليه الرواية الثانية:

وعلى قبول الاعتذار. . كان هذا التحذير من ظلم الحيوان الكاشف عن حـقه في الغـذاء. . وفي الراحة مـعًا. . وأن عـجمـته. . مما يؤكـد المسؤولية. . إزاء بهيمة تؤمر فتطيع.

ومـا أكـثـر أن نذهب إلى البـسـاتين لـنأكل الطعـام. . ونشـرب الشراب. . وحولنا من الحيوان ما لا يلتفت إليه أحد. . بل ربما كان هدفًا من أهدافنا: نتسلى به. . ويشقى بنا. .

أما في هذا اللقاء المبارك. . فقـد دخل الحيوان التاريخ. . وصار له من الحقوق مثل الذي لنا.

[illegible]

في فضائل عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) ـ لابن عبد الحكم ـ : أن عمر عمر بن عبد العزيز كتب إلى صاحب السكك:

(ألا يحملوا أحدًا بلجام ثقيل. ولا ينخسن بمقرعة في أسفلها حديدة).

وتأملوا حتى اللجام ـ على ضآلته ـ يوصي الخليفة ألا يكون ثقيلاً.. وإذا كان ولا بد من «مقرعة» ينخسن بها.. فيجب أن تستبعد الحديدة في أسفلها.. حماية للحيوان منها.

وقد كانت عين الخليفة ساهرة.. فكانت تقارير عيونه توافيه بكل ما يحدث في مصر.. ومن هذه التقارير أن الإبل تحمل فوق ما تطيق.. فكتب إلى الوالي «حيان» يقول له:

(بلغني أن في مصر إبلاً حمّالات: يحمل على البعير منها ألف رطل.. فإذا أتاك كتابي هذا.. فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل).

ويعني ذلك أن له خبراء في هذا المجال.. يستشيرهم.. ليصل أقصى حمل يتحمله الجمال ستمائة رطل.

[illegible]

ولقد كان عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يجدد سنّة نبيه (صلى الله عليه وسلم).. كما يجدد سيرته جده الفاروق (رضي الله عنه).. فقد مر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) «طوب لبن» فوضع عنه طوبتين! فأتت مالكته إلى عمر فقالت: يا عمر!! مالك وحماري؟!! ألك عليه سلطان؟!! قال: فما يقعدني في هذا الموضوع؟!! ومعناه: أن كل راع مسؤول عن رعيته.. وهو راع.. بل

إمام المسلمين.. فهو داخل اختصاصه.. وإن زعمت المرأة أنه تدخل في أمورها الشخصية!

ولم يكن (رضي الله عنه) لينصف الحيوان ويظلم الإنسان: فالمرأة هنا تأتي معبأة بشحنة الغضب الذي سول لها ...أنت تنادي أمير المؤمنين باسمه المجرد: يا عمر.. ثم كانت شديدة اللهجة معه حين كادت تقول له: لا سلطان لك عليّ.. ولا على حماري.. مما يعتبر جفاء لا يليق مع رجل كعمر (رضي الله عنه)..

وتأمل كيف وضع «طوبتين» بالعدد.. وماذا تخفف الطوبتان بالنسبة لحيوان كالحمار نتعامل معه بقسوة حتى اليوم؟ ولكنه الحس المرهف.. والتقدير السديد.. المشتق من خبرة بكل جليل وقليل من أمور الدولة.

ومن طريف ما يروى هنا ما ذكره صاحب «الطبقات» قال:

إن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ضرب حمّالاً. وقال له: لم تحمل بعيرك ما لا يطيق؟!!

ولحظ أنه ضرب الرجل.. ولم يضرب المرأة مع القسوة البادية في لهجتها.. مما يؤكد تقديره (رضي الله عنه) لوضع الأنثى التي يجيء خطابها رقيقًا رفيقًا.. منسجمًا مع أنوثتها التي يجب أن تصان.. فلا تبتذل.

وقد كان (رضي الله عنه) في حياته صورة حية لما يقول: فقد ذهب لاستلام مفاتيح بيت المقدس.. فقال لفتاه منذ الخطوة الأولى في الرحلة الطويلة: نتعاقب على البعير.. وفي المرحلة الثالثة.. نرسله ليرتاح!

تسخيره لما خلق له:

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إياكم أن تتخذوا

ظهور دوابكم منابر.. فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلىٰ بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض. فعليها فاقضوا حاجتكم».

وهذا جانب يتعلق بتكريم الحيوان. عن طريق استعماله فيما خلق له. فرارًا من ابتذاله.

إن الحيوان يتألم.. ثم هو لا يتكلم.. ولا ينبغي أن تكون المنفعة المادية هدفنا الوحيد.. وليكن للأخلاق دورها المتوهج في النهاية بالثواب «ففي كل ذي كبد رطبة أجر».. فلنثبت أننا جديرون بهذا الأجر.. بالإحسان إلىٰ من لا يملك من أمر نفسه شيئًا.

حرمة التمثيل به:

لم يكن الإحسان إلىٰ الحيوان أوامر متناثرة في بطون الكتب.. ولكن كان هناك منهج شامل في التعامل معه.. وصل إلىٰ حد أن وضع العلماء ضوابط لهذا التعامل حتىٰ لا تشتط بنا أهواؤنا:

١ ـ متىٰ يضرب الحيوان.

٢ ـ وأين يضرب.

٣ ـ وبم يضرب.

٤ ـ وكيف يضرب.

وفي النهي عن تعذيبه والتمثيل به قال (ﷺ): «**لعن الله من مثَّل بالحيوان**». حتىٰ ولو كان هذا الحيوان حمارًا:

روىٰ الطبراني: أن رسول الله (ﷺ): مر علىٰ حمار قد وُسم علىٰ وجهه فقال: «**لعن الله من يسم في الوجه**». وفي رواية: «**أو ضربها في وجهها**».

(وما ذكـر من حـبس الطير. إنما هو إذا لم يكن فـيه تعـذيب. أو تجويع أو تعطيش. ولو بمظنة الغفلة عنه. . أو بحبـسه مع طير آخر ينقب رأسه. . كـما تفعله الديوك في الأقـفاص: ينقب بعضـها رأس بعض. . حتى إن الديك يـقتل آخر. . وهذا كله حـرام. . بإجمـاع. لأن تعذيب الحيوان لا يختلف في تحريمه. والفائدة يتأتى وجودها بلا تعذيب. .

. . وعلى صاحب الحيوان أو الطير أن يتـفقده بالأكل والشرب كما يتفقـد أولاده. ويضع للطير ما يركب عليه. . كـخشبة. . أمـا أن يضعه على الأرض بلا شيء فذلك يضر به غاية الضّرر في البرد.

ثم قـال: وكثيـر من الناس يسـمع أن الطير يجـوز حبـسه. . وأن العصـفور يجوز أن يُلعب به ويستـدل بحديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير». ويعتمد على ذلك بشرط عدم تعذيبه. .

وفي الحديث الذي رواه البخـاري عن ابن عمر (رضي الله عنهما): أن رسـول الله (ﷺ) مرّ بنفر نصبوا دجاجة يرمونها. . فلما رأوه تفرقوا. . فقال ابن عمر: «من فعل هـذا؟ إن النبي (ﷺ) لعن من فعل هذا». وفي مسلم: «لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا».

ونتساءل لماذا؟ ونجـيب: إن حكمة التمثيل: قتل الحـيوان. . وعدم الانتفاع به. . فلا هو أكله. . ولا هو تركه يأكل من خشاش الأرض (ثم هو في النهاية...)

وإنها لقسوة دالة على تحجر القلوب. . على ما يقول الشاعر:

والله لو كل القلوب كقلبها ... ما رق للولد الضعيف الوالد

وكأنما يقول الطائر المعذب بطبيعة الحال:

أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

نحن .. وهم:

هناك من يزعم التحضر.. لأنه رفيق يالحيوان.. في الوقت الذي ينكل فيه بالإنسان.. لا يكاد يفتح للحب بابًا.. حتى يلبس الإنسان من العذاب ثيابًا. إنه يزعم أنه: عف الضمير.. ولكن فاسق النظر.. والحق أنه فاسق الضمير.. والنظر معًا.. إن عدوه في صدره وهو قلبه الجامد الحاقد.. على ما قيل:

أنت لا تعلمين ما الحزن ولا الهم ولا تعرفين ما في الأرق!!

وقد أعجبني قول القائل:

الفرق بيننا وبينهم: أننا نضحي بالأنعام.. وهم يضحون بالبشر... ونحن قبل ذبح الحيوان.. نحد الشفرة.. ونريح الذبيحة.. أما هم فيرمون الإنسان بالقنابل العنقودية! ونحن نذبح كما أمرنا.. وفي وقت معين.. أما هم فيذبحون بل ويدمرون.. في كل آن!!

فانظر كيف لا يلدغ الشعبانُ الثعبان.. ثم تعجب من قتل الإنسان الإنسان!

الإحسان إلى الحيوان:

لم يقف تقدير الإسلام للحيوان عند حد التحذير من الإضرارية.. بل كانت له نظرته الإيجابية إليه.. وذلك واضح من خلال وصاياه بالإحسان إليه..

وإذا كانت هناك من كانت عابدة زاهدة.. لكن إيذاءها «هرة» أحبط كل ثوابها.. فإن هناك من جزاه الله خير الجزاء.. لأنه أحسن إلى «كلب» مع أن الكلب كائن غير مرغوب فيه:

عن أبي هـريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قـال: «**بيـنا رجل يمـشي فـاشتـد عليه العطش، فنزل بـئرًا فـشرب منهـا. ثم خرج فـإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرىٰ من شدة العطش فـقال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه . ثم أمسكه بفيه. ثم رقىٰ. فسقىٰ الكلب. فشكر الله له. فغفر له**».

قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «**في كل كـبد رطبة أجر**».

لقد كان الصـحابة يسقطون الحيوان من حسـابهم. . من حيث كان كـمًا مـهمـلاً. . ولهم مطلق الحـرية في التـعامـل معـه. . لكنه (صلى الله عليه وسلم) يواجههم بهذا الموقف التاريخي لرجل عـادي. . يغيب في زحام الحياة لا يعرفـه أحد. . ومع ذلك فقـد عرفه ربه (تعالىٰ). فـغفر له مـا كان من ذنوبه. . نظير شربة ماء سقاها كلبًا!!

وكمثل هذا الرجل تلك اليهودية البغي. . والتي رأت كلبًا كاد يقتله العطش فنزعت خفها. فسقته. فغفر الله لها.

ومن الإحسان: أن يكـون الحيوان في البيت مكرمًـا كأنه واحد من أفراد الأسرة:

روىٰ أبو داود عن «داود بن صالح بن دينار» عن أمه:

أن مولاتها أرسلتها «بهريسة» إلىٰ عائشة (رضي الله عنها) فوجدتها تصلي. فأشارت إليّ : أن ضعيها. فـجاءت هرة. . فأكلت منها. فلما انصرفت من الصلاة. أكلت من حيث أكلت الهرة.

فقالت: إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «**إنها ليست بنجس. إنما هي من الطوافين عليكم. وقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتوضأ بوضوئها**».

والصالحون على ذات الطريق:

وقد كان ذلك التكريم ظاهرة تستحق التقدير:

روي عن كبشة بنت كعب بن مالك: أن أبا قتادة ـ زوجها ـ دخل فسكبت له وضوءاً (الماء الذي يتطهر به) فجاءت هرة. فشربت منه.. فأصغى لها الإناء.. حتى شربت.

قالت كبشة: فرآني أنظر إليه. فقال: أتعجبين يا ابنة آخر؟! فقلت: نعم. قال: إنها ليست بنجس.

يعني أنها كالخدم: ربيطة من ربائط البيت.

أن عائشة (رضي الله عنها) تعيّن الموضع الذي شربت منه الهرة لتشرب منه.. تأكيداً منها لطهارة الهرة.. وقبل ذلك تكريمًا لها ككائن له مكانة بين أفراد الأسرة..

ثم يجيء أبو قتادة (رضي الله عنه) ليمضي على ذات الطريق.. وكان يكفيه أن يترك للهرة الإناء.. لكنه يتدخل ليعينها على الشرب.. والهرة مطمئنة.. لا تهرب منه!!

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الإحسان إلى الحيوان أن نذكر ما أمرنا به من الإحسان إليه حتى في ذبحه:

وتأمل نحر الجمل في أسفل عنقه مربوطة قدمه اليسرى به.. لماذا؟.

لأن نحره من هنا يكون قريبًا من قلبه.. فلا يتعذب.. من حيث كانت إصابة القلب مُهينة تألمه.. ومن جهتنا نحن: فإن الفتحة القريبة من القلب.. تتيح للدم أن يخرج من مكان قريب.. فيصفوا منه اللحم لنأكله من بعد هنيئًا مريئًا.

ولعل ربط قدم واحدة.. مما يتيح للقدم الأخرىٰ.. ثم لبقية الجسم أن يتحرك حركة تساعد علىٰ خروج الدم كله..

ومن أجل ذلك حرم علماؤنا ذبح الطير ونحن نقبض علىٰ جسمه.. لأن ذلك لا يريحه.. من حيث كان حبسًا للدم.. وشلاً لحركته التي يسرع بها إلىٰ نهايته بلا عذاب.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلىٰ الآثار !

أما بعد:

ففي تراثنا الإسلام ما يشبه أن يكون «ميثاق شرف» في معاملة الحيوان..

ومن قوانينه:

١ ـ تضرب الدابة علىٰ «النِّفار».. علىٰ جموحها... لأن لها فيه بد ثم لا تضرب علىٰ العثار... لسقوط في الحفرة مثلاً.. فلا حيلة لها فيه.

٢ ـ ولا تضرب في الوجه.

٣ ـ وإذا كان ولا بد من ضربها.. فبعيداً عنه.. علىٰ ألا يكون بحديدة أو بمقرعة في أسفلها حديدة!

٤ ـ ولا تتخذ ظهورها «كراس» ولا تقلد الأجراس، ولا تستعمل ليلاً.. إلا أن يروّح عنها نهاراً.

والعجيب أنه لم يترك لصاحب الدابة أن يلتزم بذلك أو لا يلتزم.. وإنما هي مسؤولية السلطان الذي يجب عليه أن يتدخل لحماية الدابة.. وإنصافها من ظلم مالكها.. لو أساء إليها!! بل علىٰ رجاله من المحتسبين أن يجوسوا خلال الديار ليرفعوا إليه ما يرونه من صور الظلم..

قال ابن رشد:

يُقضى للعبد على سيده إن قصّر عما يجب عليه بالمعروف: في مطعمه وملبسه، خلاف ما يمتلكه من الدواب: فإنه يؤمر بتقوى الله في رعايتها.. ولا يقضى عليه بعلوفها.

البيئة وصحة الإنسان:

علاقة الإنسان بالكون من حوله.. علاقة حميمة:

يقول (تعالى): ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

أ ـ فالإنسان مخلوق من هذه الأرض.

ب ـ وقد أهّله الله (عز وجل) ليعمره.. فصارت له قراراً وداراً.. وكان أثمن درة فيها: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. بوّأه الله (تعالى) فيها مبوّء صدق.. بما أودع فيه من مقومات الكمال.

معنى البيئة:

والبيئة من النبوّء:

وهو: (الصلاح والتهيأ: وتبوّأ فلان منزلاً: إذا نظر إلى أسهل ما يُرى.. وأشده استواء.. وأمكَنه لمبيته.. فاتخذه منزلاً.. وتبوأ: نزل، وأقام.).

(وبوأهم منزلا:

نزل بهم إلى سند جبل)[1].

ويعني ذلك:

أن التبوء: منظومة من المعاني:

السكن.. القرار.. والأمان.. والكفاية: ينظر الإنسان حوله..

(١) «لسان العرب».

فيحس.. ثم يتذوق.. ثم يستمتع.. وذلك بعض ما يفهم من قوله (تعالى): ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٦].

وبناء على ما سبق.. فإن بين الإنسان وبين بيئته علاقة حميمة.. ينبغي الحفاظ عليها.. لتتنامى مع الأيام.

ذلك بأن البيئة مائدة حافلة بأطايب الطعام والشراب.. من كل نعمة هي أكبر من أختها.. أنْعَم بها (المنعم: الذي تنقطع الأعناق دون عليائها.. وتتضاءل ثواقب الأفكار عن إحصائها).

إن «الضب» لا يعيش إلا في الجو النظيف.. والهواء الرطيب.. فهل يعجز الإنسان أن يكون كهذا الحيوان؟!

معنى الاستعمار:

ويعني استعمار الأرض.. أو البيئة ما يلي:

أولاً: عدم تعطيل وظائف الأشياء فيها.

والثاني: عدم تشويهها..

بمعنى المحافظة.. لا على الشيء نفسه فقط.. وإنما الحفاظ عليه ليظل جميلاً يسر الناظرين..

ومن ثمرات هذه المحافظة:

أن يبارك الله في أعمار الأمة التي تصون هذه العلاقة.. حين تقيد هذه النعم بشكرها.. حتى تستقر وتستمر:

(كان ملوك فارس قد أكثروا في حفر الأنهار. وغرس الأشجار. فطالت أعمارهم. فسأل نبي من أنبياء زمانه ربه: ما سبب تلك الأعمار؟. فأوحى الله (تعالى) إليه: أنهم عمروا بلادي فعاش فيها

عبادي. ولقد أخذ معاوية في إحياء الأرض في آخر عمره. فقيل له: ما حملك على هذا؟ فقال: ما حملني عليه إلا قول القائل: ليس الفتى بفتى يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار). «الرازي».

وقاية البيئة من الفساد:

ونقرأ في ذلك قوله (تعالى): ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

والمعنى:

(لا تدنسوها بفساد. بعد أن أصلحها الله لكم خلقًا. بما سوّى فيها من المنافع)

ويحملكم على هذا عاملان:

أولهما: الوفاء بحق الربوبية.

وثانيهما: القيام بحق العبودية.

والمطلوب هو:

الحفاظ على الكليات الخمس. التي دعت إليها الملل. وهي: الأديان، والأبدان، والعقول، والأنساب، والأموال)

ومن معاني الحفظ:

لا تضعوا شيئًا من الخلق.. أو الحق.. في غير موضعه.. لقد أصلح الله الأرض لكم:

أ - بنعمة الإيجاد أولاً.

ب - ثم بنعمة إكمال هذا الوجود بما أنزل من شرائع. وما أرسل من رسل فتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً.

في ملاحظة للدكتور/ محمود عيسى: رئيس الجمعية المصرية للبيئة قال فيها:

(خلق الله (عز وجل) البيئة نظيفة وسليمة وخالية من أي ملوثات وأوجد الدورات الطبيعية التي تسبب التوازن بين المكونات وتؤدي إلى التكامل البيئي في الكون. ومن تلك الدورات ـ وعلى سبيل المثال وليس الحصر ـ تذكر دورة الماء في الطبيعة وكيف أن الماء الموجود في الطبيعة يكون في حالة توازن مستمر فلا نجد نقصًا ملحوظًا في الماء الموجود في الطبيعة قد حدث فجأة، ، فالماء الموجود في البحار والمحيطات والأنهار يتبخر جزء منه ويتجمع على هيئة سحب وبدورها تتكثف حتى تكون الأمطار التي تسقط على الأرض وتسقي الزرع وتذهب نسبة منه إلى المياة الجوفية المخزونة في باطن الأرض التي يستعملها الإنسان في نشاطاته المختلفة وكذلك تسقط مياة الأمطار على البحار والأنهار والمحيطات ثم تتوالى الدورة بحيث يكون هناك توازن مناسب للماء في الكون.

وفي القرآن الكريم أمثلة توضح ذلك ومنها:

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢] واختتم رسالته قائلاً: من هنا يمكننا القول بأن الطبيعة التي خلقها الله (عز وجل) كاملة ومتكاملة ولا يوجد بها ما يشوبها أو يلوثها.

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٨٥]

ولكن الإنسان بسلوكياته المختلفة أظهر الفساد في الأرض وجعل التلوث مصاحبًا لذلك مصداقًا لقوله (تعالى):

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]).

قيمة النظافة
في السنة المطهرة

١ـ نظافة الإنسان:

أ- كان (ﷺ) أنظف الناس.. وأطيب الناس.. وكان لا يفارقه السواك.. ويكره أن يشم منه إلا الطيب.. (وقد فضلت الصلاة بالسواك، على الصلاة بغير سواك.. فالمنتظم يُنعم نفسه.. ويرفع من قدرها)(١). إن الرائحة الكريهة تحمل على التنافر.. وعندئذ لا يكون بين الناس فهم.. ولا تفاهم.. ولا تعاون..

خطر إهمال النظافة:

ثم إن عبادة المسلم في غيبة النظافة على خطر عظيم.. جاء في «صيد الخاطر»: إن إهمال النظافة (يعود بالخلل في الدين.. والدنيا:

أما في الدين:

فإنه قد أمر المسلم بالتنظيف والاغتسال للجمعة لأجل اجتماعه بالناس.. ونهي عن دخول المسجد إذا أكل الثوم. وأمر الشرع بقص الأظفار، والسواك. والاستحداد. وغير ذلك من الآداب.

فإذا ترك ذلك أهمل مسنون الشرع..

وربما تعدى بعض ذلك إلى فساد العبادة:

مثل أن يهمل أظفاره فيجتمع تحته الوسخ المانع للماء في الوضوء أن يصل.

---

(١) «صيد الخاطر» (٩٦).

وأما الدنيا:

فإن الغفلة التي أوجبت إهمال أنفسهم.. أوجبت جهلهم بالأذى الحادث عنهم).

وقد يترتب على ذلك من خلل في العلاقات الأسرية.. يترتب عليه من الفساد ما الله به عليم.. وبالإهمال قد يتحول الزكام إلى نزلة شعبية.. والنزلة الشعبية إلى.. الموت!!

حماية الكيان الإنساني:

ب ـ يقول (ﷺ) «**اتقوا اللاعنين**»:

وهما: التبول في الطريق أو في الظل وفي المواضع التي يمر فيها الماء.

ما معنى ذلك؟

معناه: حماية الكيان الإنساني كله من الضرر.

١ ـ حماية لحاسة الشم.. من الروائح الكريهة التي تفسد المزاج.

٢ ـ وحماية لحاسة النظر أن تقع على قبيح.

أضف إلى ذلك.. حماية السمع من كل ما يؤذي: وذلك قوله (ﷺ): «**إذا سمعتم نهيق الحمار.. فتعوذوا**» والأصل في ذلك قوله (تعالى): ﴿**إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾ [لقمان: ١٩]

نظافة المكان:

ومن نظافة الإنسان.. إلى نظافة العمران (البيوت)

وفي هذا يروى أنه (ﷺ): «**أمر بقتل الوزغ وسماه فويسقا**» والوزغ هو: البرص وعن ابن مسعود أن النبي (ﷺ) قال: «**اقتلوا الحيات كلّهن**» والحيات: الثعابين.

وفي تعليق لشيخنا د / محمد سعاد جلال:

إنها فكرة تقدمية: إذ أن بعض الأديان السائدة اليوم تقدس هذه الحشرات وتمنع معتنقيها من قتلها فتسبب لهم الأمراض. . ثم تستنزف اقتصاد الأمة وتلك أمارة واقعية الإسلام. الحريص على صحة الإنسان. بتطهير البيوت والمساجد والفنادق من هذا الرجس لأنها قذرة.

ولأن فيها سمًا للناس. . وللأوعية. . فوجب قتلها حماية من العدوى التي تحملها.

النظافة بين الترغيب والترهيب:

ولأن النظافة بهذه المثابة من الأهمية. . فقد دارت التوجيهات النبوية حول الإنسان بالترغيب تارة وبالترهيب تارة. . ليجعل منها شرعة له ومنهاجًا: كان من دعائه (ﷺ): «**اللهم! حسَّنتَ خلْقي. . فحسِّن خُلقي**».

إنه (ﷺ) يطلب جمال الباطن. . ليتم به جمال الظاهر.

وكان ينشيء في قلوب أصحابه معنى النظافة. . وإن ترتب على ذلك شيء من الإحراج. وذلك قوله (ﷺ): «**ما لكم تدخلون عليّ قُلحًا (تغير في الأسنان) استاكوا. .**»

فالسواك: نظافة. . وجمال معًا. . وفي الحديث أنه (ﷺ) رأى رجلاً يتقلب في الجنة. . لأنه قطع شجرة في الطريق كانت تؤذي الناس.

وطبق مفهوم المخالفة. . فإنا نقول: ومن ألقى الشوك. . أو الفضلات في الطريق. . فإنه يستحق العقاب.

ومما يجب لفت النظر إليه: أن الشجرة المقطوعة لم تكن مشمرة. وكان بها شوك يؤذي السائرين.

النظافة: عبادة

نظافة الشوارع: جزء من الإيمان: قال (ﷺ): «الايمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله.. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق».

فإماطة الأذى شعبة من الإيمان.. وإن لم تكن أعلى هذه الشعب.. فيكفي دليلاً على أهميتها: أن الإيمان لا يتم إلا بها!!

وإذن.. فشعار: النظافة واجب وطني. وعلى أهميته.. إلا أن ادراجها تحت عنوان الإيمان أجدى.. وأهدى.

«إن الله (تعالى) طيب. يحب الطِّيب.. نظيف يحب النظافة. جوّاد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم.. ولا تشبهوا باليهود»[1]. اليهود الذي صار القذر في بيوتهم جزءاً من جغرافية البيوت!!

إن واجبنا:

أن نحافظ على الأصل.. فلا نهلكه.. وعلى الشكل.. فلا نشوهه.

في مجال التطبيق:

تلقت الأمة هذه التوجيهات بالقبول.. فكان فيها من وسع معنى العبادة.. بتحقيق آثارها في عالم الواقع..

مثال:

وتأمل موقف الأعرابية «معاذة العنبرية» والتي استنَّت بسنة رسول

---

(١) «نيل الأوطار» (١/١٨٨).

الله (ﷺ) فذبحت أضحيتها في العيد.. لكن همّتها العالية لم تبلغ ما تريد لها من الكمال.. فقد باتت مشغولة البال.. والذي لم يهدأ حتى تنتفع بما تبقى من الأضحية في تحقيق نظافتها.. ونظافة بيئتها:

لقد اتخذت من قرون الشاة.. خُطافًا ثبتته في السقف. ثم علقت عليه ما بقي من طعامها.. حتى لا تفسده الحشرات..ثم جعلت من «العَظم» وقودًا.. فرارًا من الدخان.. من حيث كانت نار العظام أصفى.. وبلا دخان يؤذي!!

الأضحية وصحة الإنسان:

هذا ما فعلته أعرابية من أمتنا تغيب في الزحام.. لم تتلفع بفضل مئزرها.. ولم تسق معاذة في العلب! ولكن ماذا عن الأضحية ذاتها:

لقد اشترطت السنة فيها ألا تكون عرجاء.. ولا شلاء.. ولا مريضة..يعني: أن تكون خالية من كل عيب لا يطيب به لحمها.. يجب أن تكون سليمة حتى يظل لحمها طيبًا.. يمد الجسم بالعافية.. فإذا ذبحت: فكيف؟: يُنحر الجمل. وتذبح الشاة.. لأن عنق الجمل طويل.. فلا بد من نحره ـ من أسفل ـ لتكون الفتحة قريبة من القلب.. فينزل الدم كله ولا يبقى في اللحم حتى لا يصير سما ناقعًا.

وفي كل ما سبق: رد على من زعم بأن الإسلام عقيدة فقط.. وليس بشريعة.. لأن هذه النقول تدل كلها على أن الإسلام لم يترك البيئة هملاً.. بل قعَّد لها قواعدها



واقع الناس اليوم
المشكلة والحل

في عالم البحار:

تأملت مع المتأملين.. فوجدت سبع عشرة دولة.. كلها تطل على البحر الأبيض المتوسط.. واثنتى عشرة دولة تطل على البحر الكاريبي والبحر يستقبل النفايات القاتلة.. كل هذه الدول.. التي تزعم أنها متحضرة هي بنفسها التي تفسد الماء.. والذي سوف يسري فساده بالعدوى إلى الإنسان!.

وفي عالم السيارات

تأمل: كم سيارة تنفث سمومها اليوم؟

إن الإجابة تؤكد لنا كم جنت المدنية علينا.. بما جرّت إلينا من علل. ومنها: الضجيج.. والسرعة القاتلة. كل واحد يجمع بين عملين في يوم واحد ليلاً ليلاحق نفقات البيت المتزايدة.. ولا راحة هناك.. بل إن الوقت يقتلنا.. وكنا من قبل نقتله!! فلا تَلُم المُترف إذا اشترى سيارة.. تحمله إلى مقر عمله على بعد مئات الأمتار! لأن ذلك يحقق مجموعة من المصالح.. بما يفتح من بيوت: فهناك من سيمسح السيارة.. ومن يغسلها.. ومن يصلحها.

ولكن الأفضل أن يشتري «دراجة» بواحد في المائة من ثمن السيارة يحمله على ذلك:

١ ـ أنها رخيصة.

٢ ـ حركتها تنشط الدورة الدموية.

٣ ـ تسهم في القضاء على اختناقات المرور.

٤ ـ ليس لها «عادم» مضر بالصحة.

٥ ـ وباقي ثمن السيارة يمكن أن يمول مشروعًا واسعًا:

لا يضم ماسحًا.. ولا مصلحًا.. ولا غاسلاً فقط وإنما يوجد عمالاً.. يقف أحدهم أمام الآلة الدوارة. هؤلاء الذين يأخذون رزقهم بعزة العامل الآمل ولا يستجديه استجداء يذهب بكرامته.

والفائدة الكبرى التي يجنيها مثل هذا الغني هي:

حمايته من حسد جيرانه.. وزملائه.. الذين كان يكسر خاطرهم كل يوم.. عندما يرونه.

التدخين:

تأملت قوله (تعالى): ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩].

لقد عبر (سبحانه وتعالى) عن الطير بضمير العاقل. في قوله (عز وجل) ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ فأين عقل الإنسان الذي يلفته السياق إلى آيات الله (تعالى) في الآفاق ـ وفي مملكة الطير بالذات. إنه لا عقل هناك.. عند بعض الناس.

هؤلاء الذين يدخنون.. **فيرتكبون بالتدخين مجموعة من المحظورات:**

١ ـ من الناحية الاجتماعية: فله رائحة كريهة، تؤذي حتى الملائكة.

٢ ـ من الناحية الصحية: إلقاء للنَّفس إلى التهلكة بشهادة الأطباء الحذاق.

٣ ـ من الناحية الاقتصادية: توجيه المال إلى غير مصرفه.

٤ ـ ومن الناحية النفسية: استرخاء الإرادة. وفشلها في اتخاذ القرار.

وفي ضوء ذلك قال المجربون: إنه قتل بطيء للنفس: ... ... فكل دقيقتين تدخين تحرق من عمرك دقيقة!. ثم هو تخريب للأجهزة الحيوية في الجسم: الكبد.. والقلب.. والرئتان.

والمدخنون يعلمون ذلك.. ولكنهم مصرون..

وقد قلت للمدخنين في قريتي:

لو فعلتم ما توعظون به.. فأقلعتم عن التدخين لحولتم الدخان الهائم في الهواء.. إلى بناء يصّد في جو السماء!

إن مرافق الدولة تندب حظها.. وفي إمكانكم أن تقيموا صلبها بما تحرقونه بأيديكم.

ولكن القوم.. لما فشلوا في اتخاذ القرار الصائب هربوا من الواقع.. بالتدخين.. فلم يستطيعوا تغيير العادة. ولم يجدوا البديل..

موقف الماديين:

أعلنت شركة للدخان في أمريكا أن من يقدم أعقاب خمس علب سجاير .. فجزاؤه رحلة سياحية إلى أمريكا!.. ولكن ما هي النتيجة .. قد يعود من الرحلة خلقًا آخر.. حين يفقد هويته.

فلنعالج الوهم.. بالوهم:

إن الرضيع أشد تعلقًا باللبن.. ومع ذلك يزهد فيه يومًا.. ثم يكون الفطام.

فلماذا تعْجَز عن اتخاذ قرار سبقك إليه أطفال صغار.

كان الشيخ «الخضري» يعتقد يومًا أن في بطنه كتلة من «الثعابين» فذهب إلى الطبيب الذي أوعز إلى المريض أن يضع في الحمام مجموعة من الثعابين الميتة.

ثم قال للشيخ بعدما رجع من الحمام: هذا ما كان في بطنك، وشفي الشيخ بإذن الله (تعالى)، شفي من الوهم الذي كان يفسد حياته!.

وما أكثر المدخنين الظانين بأنفسهم ظن السوء. حين يتصورون أنهم من التدخين في متعة بل في نشوة! وما أكثر الفلاحين البسطاء الذين يكدحون.. ولا يدخنون وإنهم ليحسون بمتعة لو علمها المدخنون لجالدوهم عليها بالسيوف!

أما بعد:

فإن كل سيجارة، مسمار يندق في نعشك.. ويكفي أنه لا يُبدأ معها بالبسملة ولا يختم بحمد الله.

من آثار ذلك:

ومن آثار هذا الإحساس الميت بقيمة النظافة.. أن نألف رؤية القذارة.. وأخطر من القذارة ألا تراها.. وقد تألفها..

ثم تدافع عنها: تسوغها الناس.. في محاولة لإحقاق الباطل.. وإبطال الحق!

وقد حدث ذلك فعلاً.. فيما جاء في سورة الأعراف.. عن تلك الحملة الظالمة.. والتي تولي كبرها أقذار الناس.. ضد المؤمنين.. الذين كان ذنبهم الوحيد: أنهم أناس يتطهرون!!

يقول (تعالى) على لسان هؤلاء:

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. يريدون أن يقولوا: إن لوطًا وقومه ميَّالون إلى مثل ما نفعل من الشذوذ.. ورغتهم في هذا الفعل قوية.. ولكنهم ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يتكلفون الطهر والحال أنهم غير طاهرين!

ولا حياء هناك لدى المفترين.. لأن موطن الحياء خلف ضلوعهم خرب.. مهجور!!

قيمة الجمال:

ولا يقتصر الإسلام على تأصيل قيمة النظافة فقط.. لكنه مع هذا.. يؤصل قيمة الجمال في وجدان الأمة.. حتى إذا تمت قيمة النظافة.. بقيمة الجمال.. كأن أفراد الأمة:

خيوطًا تتوازى.. وتتعامد..

في ثوب الوطن..

هذا الوطن..

الذي يسترنا جميعًا.

أهمية الحفاظ على الجمال:

والمحافظة على الجمال أهم: لماذا؟ لأنك إذا أُمِرْت بالحفاظ على الجمال.. لم تكن مأمور بحفظ الشيء ذاته فقط.. ولكنك مأمور بالحفاظ على جماله..

وحفظ الجمال: سياج.. يحملنا على أن نكون أشد حرصًا على الشيء الجميل نفسه، فالضروريات.. والحاجيات.. في حاجة إلى التحسينات وهي عنصر الجمال..

كما أنك في المنهيات تقول: اجتنبوا.. لا تقربوا..

وإذن . . فالإقـلاع عن المنهي عنه شيء محـتمل وأهم من ذلك . . إخراجه من حياتنا بل من تصورنا !!!

إن النظافة . . واحدة من ملامح الحضارة الإسلامية . . وبعد النظافة تجيء الزينة . . لتتم النعمة بالجمال . .

وقـد لاحظ أحد البـاحـثين أن القرآن لم ترد فـيـه مادة «النظافـة» منصوصًا عليها . . لأنها جـزء من الفطرة التي تبذل طبعًا . . لا تطبعًا . . أو هكذا ينبغي أن تكون!



قيمة الجمال في التصور الإسلامي

أ ـ في القرآن الكريم:

برز الجمال في آي القرآن الكريم كقيمة يمتن الله بها (سبحانه) على الإنسان.. الذي يتقاضاه أن يشكر نعمة الله (تعالى).. على هذه القيمة التي هي في نفس الوقت مجلى من مجالي القدرة الإلهية.

يقول الله (تعالى): ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، ولاحظ أنه (سبحانه وتعالى) يقدم الجمال على بقية المنافع.. حيث يقول بعد ذلك مباشرة: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

يؤكد ذلك ما جاء في سورة الأنعام وهو قوله (تعالى): ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ثم قوله (تعالى): ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ..﴾ [الأنعام: ١٤١].

وسورة الأنعام نزلت مرة واحدة.. وإذن فآياتها مرتَّبة: نزولاً وتلاوة.. فتقديم ما يتعلق بالجمال مغالاة بقيمة هذا الجمال.. على أن في الأكل أيضًا جمالاً: ذلك بأن الأنعام ترعى.. ولا تأكل.. ترعى: مرسلات المراعي.. بلا ضوابط.. فهي تكسر الفروع.. وتميت البراعم.

ويقول (سبحانه وتعالى) في سورة ق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞

رزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٧ ـ ١١].

فكما أن الآيات الكريمة تتحدث عن آثار صفات الجلال.. فإنها تشير إلى آثار صفات الجمال.. في مجال الطبيعة: ففي الأرض من النبات أزواج من أنواع.. بهيجة.. جميلة.. وقبل أن تكون طعامًا للآكلين فإنها متعة للناظرين..

فالنخل: باسقات.. طوال.. وطلعها متراكب.. نضيد.. منسق متراكب.

ومن دلائل الحكمة هنا: أن يكون ذلك الجمال دليلاً على البعث.. والنشور.. وذلك قوله (تعالى): ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ١١].

هذه القضية التي أنكرها الجاحدون. فزادوا فيها وأعادوا.. يثبتها الحق (سبحانه وتعالى) بما بث في الكون حولنا .. وفوقنا.. من صور الجمال والكمال.. الذي نصل من خلاله إلى أعقد القضايا!!

ويقول (تعالى): ﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦] لبنًا سائغًا.. لذيذًا.. ممتعًا. فالنعمة ليست فقط في إشباع البطن.. أي: ليست في حفظ الحياة، وإنما في إمتاعها.. إمتاعًا هو في ذاته نعمة مستقلة.

متعة الأفنان:

يقول (عز وجل) في وصف نعيم الجنة: ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٨].

والفنن هو: الغصْن.

وفي الغصن من الكمال والجمال ما فيه:

الورق..

والزهر..

والثمر..

ثم يمتد به الظل.. ويلطف به الهواء.. ويحسن المنظر.

وإذن: فالملاذ الحسية مستحسنة.. متى كانت حلالاً.. لأن الله (تعالى) لا يحل إلا ما كان مستحسنًا ولا يثيب عباده بما ليس مستحسن. فإذا تصورت مع ذلك أن هذه الجنان ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٢٥] أدركت نعمة أخرى هي: نعمة الماء في ذاته.. ثم نعمة جريانه.. والجريان يعني: الجمال.. وعدم فساد الماء.

نعمة الظل:

يقول (عز وجل): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

يقول علماؤنا:

(عندما كذب المشركون بالحق.. ضرب الله (تعالى) الظل مثلاً يدل على أنه (تعالى) إله قادر مريد.. عليم..

ألم تر: رؤية عقلية.. تقودك إلى الاعتراف بالواحد (سبحانه وتعالى).

ثم: رؤية حسية ترى بها آثار مظاهر قدرته (سبحانه وتعالى).

ولو شاء (تعالى).. لجعل ظل كل شيء لاصقًا به: الجبل.. والشجر.. والجدار.

ولكنه (سبحانه) جعله متقلصًا.. ومنبسطًا.. ممتدًا.. لينتفع الناس.. والشمس دليل عليه.

فَتَنَقُّل الشمس في النهار. يُستدل به على أحوال الظل. فينتفع به

الناس على قدر حاجتهم.. وهي تنسخه بارتفاعها شيئًا فشيئًا.. يسيرًا.. لأنه لو قُبض دفعة واحدة.. لتعطلت مصالح الناس).

الزينة.. الشرعية:

يقول (عز وجل):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إنها زينة مشروعة.. ويكفيها شرفًا أنها مضافة إلى الله (عز وجل): ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾ وهي التي: ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ فهو سبحانه مخرجها وراعيها.

الجمال في السنة المطهرة:

عن ابن مسعود (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا. ونعله حسنا. قال: «**إن الله جميل يحب الجمال: الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[1].

لقد فزع الصحابي الجليل. مخافة أن يكون في تجمله مستكبرًا.. ولكنه (ﷺ).. لا يبيح له أن يتزين فقط.. وإنما هو في تجمله متخلق بأخلاق الله (عز وجل).

وحرصًا منه (ﷺ).. على البيئة أن تكون نظيفة معطرة الأجواء.. نراه ينهي عن قطع أشجار مكة:

إلا الإذْخِر.. لماذا؟

لأن الإذخِر نبات طيب الرائحة.. ولا بأس أن ينتقل ليعم أريجه كل البقاع.. ولقد كانوا ـ وفي ليلة العرس ـ يجعلون حشو الوسادة ـ بالذات ـ من هذا «الإذخِر» الذي يعم ريحه المكان.. فيسعد الإنسان.

(١) «مسلم» ج١ «كتاب الإيمان».

ولقد كـان عمر (رضي الله عنه) يقـول: إني لأحب أن أنظر إلى القـارئ: أبيض الثياب[١].

وهو الذي قـال: (لا تزوجـوا بناتكم مـن الرجل الدمـيم: فـإنهن يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن)[٢].

من آثار الإسلام:

وقد كان لهذا المسلك الإسلامي الحضاري.. كانت له آثاره في أمم غيرنا..

أ ـ طلب الرجل الألمانـي من جاره المـواجه له فـي السكن أن يدله على اللون الذي يختاره لـنوافذه التي تواجهه لتكون كمـا يهوى.. حتى إذا نظر إليها الجار .. كان مستريحًا!!

ب ـ وفي بعض الدول: يستأذن صاحب الشجرة في قطعها.. ولا بد أن تكون الأسباب وجيهة.. مقنعة.. ثم يكتب تعهدًا بزراعة شجرة:

١ ـ مكانها

٢ ـ ومن نفس النوع.

٣ ـ وتحت إشراف الدولة!

وقـد رأوا هناك فتـاة تبكي؛ لأنهم يقطعـون شـجرة، ورأوا طفـلاً صغيراً يشكو أباه للسلطة؛ لأن أباه قطف زهرة.

وخليق بأمـة الإسـلام أن تكون كـذلك.. فتـحـافظ على ثروتهـا الخضراء.. ومن كسا الأرض بالخضـرة.. والظل .. والثمر فهو جدير في الآخرة بجنات تجري من تحتها الأنهار:

(١) والقراء هم: العباد الزهاد.

(٢) «فقه السنة» ج ٢ (٢٩).

أ ـ جنات: تجنّ الأرض أي تغطّيها.

ب ـ وتجري من تحتها الأنهار:

وفي الجريان: جمال.. وحماية للماء من الفساد كما أسلفنا.

لكن الفرق ـ مع ذلك ـ يبقى هائلاً: بين عمل.. وعمل..

عمل يبدو في ظاهره مضيئًا وضيئًا لكنه خال من الإخلاص.

وعمل.. ينبثق عن العقيدة الراسخة.. التي تمنح العمل خلودًا..

فإذا كنا نستمتع بالإذخر.. فإننا نستمتع به طاعة لأمر الإسلام..

أما هناك.. فكيف يتصرفون؟

في الشيوعية:

قد تستمتع بشجرة الصفصاف على الترعة.. ولكن هذه المتعة أو النعمة.. لا يعرفها من جعلوا الاقتصاد أساس الحياة:

فلا يمكن تحقيق المتعة إلا بعد قطعها.. ونشرها.. وبيعها في السوق!!

والرأسمالية:

يصفون عبد الرحمن بن عوف بأنه «رأسمالي»!!

مع أنه كان لفرط زهده في الحياة.. لا يُعرف من عَبِيدة.. لزهده في لباسه.. فكأنه وهو الغني.. مع أبي هريرة وهو الفقير.. كلاهما سواء في الروح «التي بعثها الإيمان» فكانا عنوانًا لها.. على ما بينهما من الفقر والغنى.



تربية
الذوق الجمالي

يقولون:

(هناك حقيقة عليا في هذه الدنيا في أن الذوق موهبة واستعداد فطري ولكن نقوم بعد ذلك بتنمية هذه الموهبة وتدريبها والارتقاء بها عن طريق التعليم والمعرفة والثقافة. ولكن الذوق إذا لم يكن موجودًا بالفطرة فلا جدوىٰ من أي جهود أخرىٰ لتكوينه، وكما يقول القدماء فإن «الذوق شيء ليس في الكتب» أي أننا لا يمكن أن «نتعلم» الذوق إذا لم يكن له وجود فطري فينا، فالتعليم يكشف عن الذوق ويرفع مستواه، ولكنه لا يخلقه من العدم. وهذا ما يصوره لنا صالح عبدون في مذكراته الرائعة، منذ الصفحة الأولىٰ، وفي شاعرية وتواضع جميل حيث يقول: «الحمد لله الذي خلقنا أسوياء» غير مصابين بعمىٰ الألوان أو صمم الاستمتاع، فبالفطرة أحببنا الجمال في بيئتنا الريفية البكر الصافية والخالية من ملوثات وأمراض العصر. كم كان جميلاً أن نستقبل اليوم الجديد بنداء الفجر، وصوت صادح شجي مفعم بالخشوع للمؤذن الضرير «أبو خضر» الذي لم يشاركه أحد في رفع الأذان. وعند شروق الشمس وقبيل الغروب كانت تصطف علىٰ أسلاك الهاتف المعلقة طيور خضراء اللون وعلىٰ مقربة منها أخرىٰ سوداء قيل عصافير الجنة الخضراء وعصافير النار، وقد اشتركت في تغريد كورالي ـ أي جماعي ـ فطري وسط لوحة تشكيلية بهية يثريها اللون الأبيض لبراعم أشجار المشمش المصفوفة).

العقاد
يصف جمال الطبيعة في أسوان

قال:

(شلال.. كزئير الأسود.. وقصف الرعود..

هكذا قال العقاد في أسوان: الذي كان جمالها عنده في صلابة صخورها.

وجهامة تماثيلها.

ووقار نيلها.. واستقامته.. مع مرونته!).

عود على بدء:

أشرنا إلى أن الإنسان يأكل.. منضبطًا في أكله: كمًّا وكيفًا.. ولكن الأنعام: ترعى.. بلا ضابط..

ولكن.. يجب علينا أن نلاحظ أنها ترعى العشب والكلأ.. ليسري في جوفها عافية.. وفي لحمها طيبًا.. تنتقل إلينا صحة.. وليست كأنعام اليوم.. التي تعيش على غذائها المصنوع من الدم الجاف: هذا العلف الذي رمى البشر اليوم.. بأمراض فتاكة.. مؤكدة مضيّ سنة الله (تعالى) في كل من خالف عن أمر · فلسوف ينال وبال أمره!!!



الفهرست